(١١٠) سورة النصر مدنية
وآياتها ثلاث

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ فى الآية لطائف :

﴿ إحداها ﴾ أنه تعالى لما وعد محمداً بالتربية العظيمة بقوله (ولسوف يعطيك ربك فترضى) وقوله (إنا أعطيناك الكوثر) لاجرم كان يزداد كل يوم أمره ، كأنه تعالى قال يامحمد لم يضيق قلبك ، ألست حين لم تكن مبعوثاً لم أضيعك بل نصرتك بالطير الأبابيل ، وفى أول الرسالة زدت فجعلت الطير ملائكة ألن يكفيكم (أن يمدكم ربكم بخمسة آلاف) ثم الآن أزيد فأقول إنى أكون ناصراً لك بذاتى (إذا جاء نصر الله) فقال إلهى إنما تتم النعمة إذا فتحت لى دار مولدى ومسكنى فقال (والفتح) فقال إلهى لكن القوم إذا خرجوا ، فأى لذة فى ذلك فقال (ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً) ثم كأنه قال هل تعلم يامحمد بأى سبب وجدت هذه التشريفات الثلاثة إنما وجدتها لأنك قلت فى السورة المتقدمة (يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) وهذا يشتمل على أمور ثلاثة (أولها) نصرتنى بلسانك فكان جزاؤه (إذا جاء نصر الله) (وثانيها) فتحت مكة قلبك بعسكر التوحيد فأعطيناك فتح مكة وهو المراد من قوله ، والفتح (والثالث) أدخلت رعية جوارحك وأعضائك فى طاعتى وعبوديتى فأنا أيضا أدخلت عبادى فى طاعتك ، وهو المراد من قوله (يدخلون فى دين الله أفواجاً) ثم إنك بعد أن وجدت هذه الخلع الثلاثة فابعث إلى حضرتى بثلاث أنواع من العبودية تهادوا تحابوا ، إن نصرتك فسبح ، وإن فتحت مكة فاحمد وإن أسلموا ، فاستغفر ، وإنما وضع فى مقابلة (نصر الله) تسبيحه ، لأن التسبيح هو تنزيه الله عن مشابهة المحدثات ، يعنى تشاهد أنه نصرك ، فإياك أن تظن أنه إنما نصرك لأنك تستحق منه ذلك النصر ، بل اعتقد كونه منزهاً عن أن يستحق عليه أحد من الخلق شيئاً ، ثم جعل فى مقابلة فتح مكة الحمد لأن النعمة لا يمكن أن تقابل إلا بالحمد ، ثم جعل فى مقابلة دخول الناس فى الدين الاستغفار وهو المراد من قوله (واستغفر لذنبك ، وللمؤمنين والمؤمنات) أى كثرة الاتباع مما يشغل

القلب بلذة الجاه والقبول ، فاستغفر لهذا القدر من ذنبك ، واستغفر لذنبهم فإنهم كلما كانوا أكثر كانت ذنوبهم أكثر فكان احتياجهم إلى استغفارك أكثر (الوجه الثانى) أنه عليه السلام لما تبرأ عن الكفر وواجههم بالسوء فى قوله (يا أيها الكافرون) كأنه خاف بعض القوم فقلل من تلك الخشونة فقال (لكم دينكم ولى دين) فقيل يا محمد لا تخف فإنى لا أذهب بك إلى النصر بل أجىء بالنصر إليك (إذا جاء نصر الله) نظيره « زويت لى الأرض » يعنى لا تذهب إلى الأرض بل تجىء الأرض إليك ، فإن سئمت المقام وأردت الرحلة ، فتلك لا يرتحل إلا إلى قاب قوسين (سبحان الذى أسرى بعبده) بل أزيد على هذا فأفضل فقراء أمتك على أغنيائهم ثم آمر الأغنياء بالضحايا ليتخذوها مطايا فإذا بقى الفقير من غير مطية أسوق الجنة إليه (وأزلفت الجنة للمتقين) (الوجه الثالث) كأنه سبحانه قال يا محمد إن الدنيا لا يصفو كدرها ولا تدوم محنها ولا نعيمها فرحت بالكوثر فتحمل مشقة سفاهة السفهاء حيث قالوا اعبد آلهتنا حتى نعبد إلهك فلما تبرأ عنهم وضاق قلبه من جهتهم قال أبشر فقد جاء نصر الله فلما استبشر قال الرحيل الرحيل أما علمت أنه لا بد بعد الكمال من الزوال ، فاستغفره أيها الإنسان لا تحزن من جوع الربيع فعقيبه غنى الخريف ولا تفرح بغنى الخريف فعقيبه وحشة الشتاء ، فكذا من تم إقباله لا يبقى له إلا الغير ومنه :

إذا تم أمر دنا نقصه   توقع زوالا إذا قيل تم

إلهى لم فعلت كذلك قال حتى لا نضع قلبك على الدنيا بل تكون أبداً على جناح الارتحال والسفر (الوجه الرابع) لما قال فى آخر السورة المتقدمة (لكم دينكم ولى دين) فكأنه قال إلهى وما جزائى فقال نصر الله فيقول وما جزاء عمى حين دعانى إلى عبادة الأصنام فقال (تبت يدا أبى لهب) فإن قيل فلم بدأ بالوعد قبل الوعيد ، قلنا لوجوه (أحدها) لأن رحمته سبقت غضبه (والثانى) ليكن الجنس متصلا بالجنس فإنه قال (ولى دين) وهو النصر كقوله (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين اسودت وجوههم) ، (وثالثها) الوفاء بالوعد أهم فى الكرم من الوفاء بالانتقام ، فتأمل فى هذه المجانسات الحاصلة بين هذه السور مع أن هذه السورة من أواخر ما نزل بالمدينة وتلك السورة من أوائل ما نزل بمكة ليعلم أن ترتيب هذه السور من الله وبأمره (الوجه الخامس) أن فى السورة المتقدمة لم يذكر شيئاً من أسماء الله ، بل قال ما أعبد بلفظ ما ، كأنه قال لا أذكر اسم الله حتى لا يستخفوا فتزداد عقوبتهم ، وفى هذه السورة ذكر أعظم أساميه لأنها منزلة على الأحباب ليكون ثوابهم بقراءته أعظم فكأنه سبحانه قال لا تذكر اسمى مع الكافرين حتى لا يهينوه واذكره مع الأولياء حتى يكرموه (الوجه السادس) قال النحويون إذا منصوب بسبح ، والتقدير فسبح بحمد ربك إذا جاء نصر الله ، كأنه سبحانه يقول جعلت الوقت ظرفاً لما تريده وهو النصر والفتح والظفر . وملأت ذلك الظرف من هذه

الأشياء ، وبعثته إليك فلا ترده على فارغاً ، بل املأه من العبودية ليتحقق معنى « تهادوا تحابوا » فكأن محمداً عليه السلام قال : بأى شيء أملأ ظرف هديتك وأنا فقير ، فيقول الله فى المعنى : إن لم تجد شيئاً آخر فلا أقل من تحريك اللسان بالتسبيح والحمد والاستغفار ، فلما فعل محمد عليه الصلاة والسلام ذلك حصل معنى تهادوا ، لا جرم حصلت المحبة ، فلهذا كان محمد حبيب الله (الوجه السابع) كأنه تعالى يقول : إذا جاءك النصر والفتح ودخول الناس فى دينك ، فاشتغل أنت أيضاً بالتسبيح والحمد والاستغفار ، فإنى قلت «لئن شكرتم لأزيدنكم» فيصير اشتغالك بهذه الطاعات سبباً لمزيد درجاتك فى الدنيا والآخرة ، ولا تزال تكون فى الترقى حتى يصير الوعد بقولى (إنا أعطيناك الكوثر) (الوجه الثامن) أن الإيمان إنما يتم بأمرين : بالنفى والإثبات وبالبراءة والولاية ، فالنفى والبراءة قوله (لا أعبد ماتعبدون) والإثبات والولاية قوله (إذا جاء نصر الله) فهذه هى الوجوه الكلية المتعلقة بهذه السورة .

واعلم أن فى الآية أسراراً ، وإنما يمكن بيانها فى معرض السؤال والجواب .

﴿ السؤال الأول ﴾ ما الفرق بين النصر والفتح حتى عطف الفتح على النصر ؟ (الجواب) من وجوه (أحدها) النصر هو الإعانة على تحصيل المطلوب ، والفتح هو تحصيل المطلوب الذى كان متعلقاً ، وظاهر أن النصر كالسبب الفتح ، فلهذا بدأ بذكر النصر وعطف الفتح عليه (وثانيها) يحتمل أن يقال النصر كمال الدين ، والفتح الإقبال الدنيوى الذى هو تمام النعمة ، ونظير هذه الآية قوله (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى) (وثالثها) النصر هو الظفر فى الدنيا على المنى ، والفتح بالجنة ، كما قال (وفتحت أبوابها) وأظهر الأقوال فى النصر أنه الغلبة على قريش أو على جميع العرب .

﴿ السؤال الثانى ﴾ أن رسول الله ﷺ كان أبداً منصوراً بالدلائل والمعجزات ، فما المعنى من تخصيص لفظ النصر بفتح مكة ؟ (والجواب) من وجهين (أحدهما) المراد من هذا النصر هو النصر الموافق للطبع ، وإنما جعل لفظ النصر المطلق دالا على هذا النصر المخصوص ، لأن هذا النصر لعظم موقعه من قلوب أهل الدنيا جعل ما قبله كالمعدوم ، كما أن المثاب عند دخول الجنة يتصور كأنه لم يذق نعمة قط ، والى هذا المعنى الاشارة بقوله تعالى (وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) ، (وثانيهما) لعل المراد نصر الله فى أمور الدنيا الذى حكم به لأنبيائه كقوله (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر) .

﴿ السؤال الثالث ﴾ النصر لا يكون إلا من الله ، قال تعالى (وما النصر إلا من عند الله) فما الفائدة فى هذا التقييد وهو قوله (نصر الله) ؟ والجواب معناه نصر لا يليق إلا بالله ولا يليق أن يفعله إلا الله أو لا يليق إلا بحكمته ويقال هذا صنعة زيد إذا كان زيد مشهوراً بإحكام الصنعة ، والمراد منه تعظيم حال تلك الصنعة ، فكذا ههنا ، أو نصر الله لأنه إجابة لدعائهم (متى نصر الله) فيقول هذا الذى سألتموه .

﴿ السؤال الرابع ﴾ وصف النصر بالمجيء مجاز وحقيقته إذا وقع نصر الله فما الفائدة فى ترك الحقيقة وذكر المجاز ؟ الجواب فيه إشارات : (إحداها) أن الأمور مربوطة بأوقاتها وأنه سبحانه قدر لحدوث كل حادث أسباباً معينة وأوقاتاً مقدرة يستحيل فيها التقدم والتأخر والتغير والتبدل فإذا حضر ذلك الوقت وجاء ذلك الزمان حضر معه ذلك الأثر وإليه الإشارة بقوله (وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم) ، (وثانيها) أن اللفظ دل على أن النصر كان كالمشتاق إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن ذلك النصر كان مستحقاً له بحكم الوعد فالمقتضى كان موجوداً إلا أن تخلف الأثر كان لفقدان الشرط فكان كالثقيل المعلق فان ثقله يوجب الهوى إلا أن العلاقة مانعة فالثقيل يكون كالمشتاق إلى الهوى ، فكذا ههنا النصر كان كالمشتاق إلى محمد صلى الله عليه وسلم (وثالثها) أن عالم العدم عالم لا نهاية له وهو عالم الظلمات إلا أن فى قعرها ينبوع الجود والرحمة وهو ينبوع جود الله وإيجاده ، ثم انشعبت بحار الجود والأنوار وأخذت فى السيلان ، وسيلانها يقتضى فى كل حين وصولها إلى موضع ومكان معين فبحار رحمة الله ونصرته كانت آخذة فى السيلان من الأزل فكأنه قيل يا محمد قرب وصولها إليك ومجيئها إليك فاذا جاءتك أمواج هذا البحر فاشتغل بالتسبيح والتحميد والاستغفار فهذه الثلاثة هى السفينة التى لا يمكن الخلاص من بحار الربوبية إلا بها ، ولهذا السبب لما ركب أبوك نوح بحر القهر والكبرياء استعان بقوله (بسم الله مجراها ومرساها) .

﴿ السؤال الخامس ﴾ لاشك أن الذين أعانوا رسول الله ﷺ على فتح مكة هم الصحابة من المهاجرين والأنصار ، ثم إنه سمى نصرتهم لرسول الله (نصر الله) فما السبب فى أن صار الفعل الصادر عنهم مضافاً إلى الله ؟ (الجواب) هذا بحر يتفجر منه بحر سر القضاء والقدر ، وذلك لأن فعلهم فعل الله ، وتقريره أن أفعالهم مسندة إلى ما فى قلوبهم من الدواعى والصوارف ، وتلك الدواعى والصوارف أمور حادثة فلابد لها من محدث وليس هو العبد ، وإلا لزم التسلسل ، فلا بد وأن يكون الله تعالى ، فيكون المبدأ الأول والمؤثر الأبعد هو الله تعالى ، ويكون المبدأ الأقرب هو العبد . فمن هذا الاعتبار صارت النصرة المضافة إلى الصحابة بعينها مضافة إلى الله تعالى ، فإن قيل فعلى هذا التقدير الذى ذكرتم يكون فعل العبد مفرعاً على فعل الله تعالى ، وهذا يخالف النص ، لأنه قال (إن تنصروا الله ينصركم) فجعل نصرنا له مقدماً على نصره لنا (والجواب) أنه لا امتناع فى أن يصدر عن الحق فعل ، فيصير ذلك سبباً لصدور فعل عنا ، ثم الفعل عنا ينساق إلى فعل آخر يصدر عن الرب ، فإن أسباب الحوادث ومسبباتها متسلسلة على ترتيب عجيب يعجز عن إدراك كيفيته أكثر العقول البشرية .

﴿ السؤال السادس ﴾ كلمة (إذا) للمستقبل ، فههنا لما ذكر وعداً مستقبلا بالنصر ، قال (إذا جاء نصر الله) فذكر ذاته باسم الله ، ولما ذكر النصر الماضى حين قال (ولئن جاء نصر من ربك

وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾

ليقولن) فذكره بلفظ الرب ، فما السبب فى ذلك ؟ (الجواب) لأنه تعالى بعد وجود الفعل صار رباً ، وقبله ماكان رباً لـكن كان إلهاً .

﴿ السؤال السابع ﴾ أنه تعالى قال (إن تنصروا الله ينصركم) وإن محمداً عليه السلام نصر الله حين قال (يا أيها الكافرون ، لا أعبد ماتعبدون) فكان واجباً بحكم هذا الوعد أن ينصره الله ، فلا جرم قال (إذا جاء نصر الله) فهل تقول بأن هذا النصر كان واجباً عليه ؟ (الجواب) أن ماليس بواجب قد يصير واجباً بالوعد . ولهذا قيل : وعد الكريم ألزم من دين الغريم ، كيف ويجب على الوالد نصرة ولده ، وعلى المولى نصرة عبده ، بل يجب النصر على الأجنبى إذا تعين بأن كان واحداً اتفاقاً ، وإن كان مشغولا بصلاة نفسه ، ثم اجتمعت هذه الأسباب فى حقه تعالى فوعده مع الكرم وهو أرأف بعبده من الوالد بولده والمولى بعبده وهو ولى بحسب الملك ومولى بحسب السلطنة ، وقيوم للتدبير وواحد فرد لا ثانى له فوجب عليه وجوب الكرم نصرة عبده ، فلهذا قال (إذا جاء نصر الله) .

قوله تعالى : ﴿ والفتح ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ نقل عن ابن عباس أن الفتح هو فتح مكة وهو الفتح الذى يقال له فتح الفتوح روى أنه لما كان صلح الحديبية وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أغار بعض من كان فى عهد قريش على خزاعة وكانوا فى عهد رسول الله ﷺ فجاء سفير ذلك القوم وأخبر رسول الله ﷺ فعظم ذلك عليه ، ثم قال أما إن هذا العارض ليخبرنى أن الظفر يجىء من الله ، ثم قال لأصحابه انظروا فان أبا سفيان يجىء ويلتمس أن يجدد العهد فلم تمض ساعة أن جاء الرجل ملتمساً لذلك فلم يجبه الرسول ولا أكابر الصحابة فالتجأ إلى فاطمة فلم ينفعه ذلك ورجع إلى مكة آيساً وتجهز رسول الله ﷺ إلى المسير لمكة ، ثم يروى أن سارة مولاة بعض بنى هاشم أتت المدينة فقال عليه السلام لها جئت مسلمة ؟ قالت لا لكن كنتم الموالى وبى حاجة ، فحث عليها رسول الله بنى عبد المطلب فكسوها وحملوها وزودوها فأتاها حاطب بعشرة دنانير واستحملها كتاباً إلى مكة نسخته : اعلموا أن رسول الله يريدكم فخذوا حذركم ، فخرجت سارة ونزل جبريل بالخبر ، فبعث رسول الله ﷺ علياً عليه السلام وعماراً فى جماعة وأمرهم أن يأخذوا الكتاب وإلا فاضربوا عنقها ، فلما أدركوها جحدت وحلفت فسل على عليه السلام سيفه ، وقال الله ما كذبنا فأخرجته من عقيصة شعرها ، واستحضر النبى حاطباً وقال ما حملك عليه ؟ فقال والله ما كفرت منذ أسلمت ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، لكن كنت غريباً فى قريش وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهاليهم فخشيت على أهلى فأردت أن أتخذ عندهم يداً ، فقال عمر دعنى أضرب عنق هذا المنافق

فقال وما يدريك ياعمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ففاضت عينا عمر ، ثم خرج رسول الله إلى أن نزل بمر الظهران ، وقدم العباس وأبو سفيان إليه فاستأذنا فأذن لعمه خاصة فقال أبو سفيان ، إما أن تأذن لى وإلا أذهب بولدى إلى المفازة فيموت جوعاً وعطشاً فرق قلبه ، فأذن له وقال له : ألم يأن أن تسلم وتوحد ؟ فقال أظن أنه واحد ، ولو كان ههنا غير الله لنصرنا ، فقال : ألم يأن أن تعرف أنى رسوله ؟ فقال إن لى شكا فى ذلك ، فقال العباس : أسلم قبل أن يقتلك عمر ، فقال : وماذا أصنع بالعزى ، فقال عمر لولا أنك بين يدى رسول الله لضربت عنقك ، فقال : يامحمد أليس الأولى أن تترك هؤلاء الأوباش وتصالح قومك وعشيرتك ، فسكان مكة عشيرتك وأقاربك ، و [لا] تعرضهم للشن والغارة ، فقال عليه السلام : هؤلاء نصرونى وأعانونى وذبوا عن حريمى ، وأهل مكة أخرجونى وظلمونى ، فإن هم أسروا فبسوء صنيعهم ، وأمر العباس بأن يذهب به ويوقفه على المرصاد ليطالع العسكر ، فكانت الكتيبة تمر عليه ، فيقول من هذا ؟ فيقول العباس هو فلان من أمراء الجند إلى أن جاءت الكتيبة الخضراء التى لا يرى منها إلا الحدق ، فسأل عنهم ، فقال العباس : هذا رسول الله ، فقال : لقد أوتى ابن أخيك ملكا عظيما ، فقال العباس : هو النبوة ، فقال هيهات النبوة ، ثم تقدم ودخل مكة ، وقال إن محمداً جاء بعسكر لا يطيقه أحد ، فصاحت هند وقالت : اقتلوا هذا المبشر ، وأخذت بلحيته فصاح الرجل ودفعها عن نفسه ، ولما سمع أبو سفيان أذان القوم للفجر ، وكانوا عشرة آلاف فزع لذلك فزعا شديداً وسأل العباس ، فأخبره بأمر الصلاة ، ودخل رسول الله مكة على راحلته ولحيته على قربوس سرجه كالساجد تواضعاً وشكراً ، ثم التمس أبو سفيان الأمان ، فقال من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، فقال : ومن تسع دارى ، فقال : ومن دخل المسجد فهو آمن فقال : ومن يسع المسجد ، فقال : من ألقى سلاحة فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ثم وقف رسول الله ﷺ على باب المسجد ، وقال : لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ثم قال : يا أهل مكة ما ترون إنى فاعل بكم ، فقالوا خيرا اخ كريم وابن أخ كريم ، فقال اذهبوا فأنتم الطلقاء فاعتقهم ، فلذلك سمى أهل مكة الطلقاء ومن ذلك كان على عليه السلام يقول لمعاوية أنى يستوى المولى والمعتق يعنى اعتقناكم حين مكننا الله من رقابكم ولم يقل اذهبوا فانتم معتقون ، بل قال : الطلقاء ، لأن المعتق يجوز أن يرد إلى الرق ، والمطلقة يجوز تعاد إلى رق النكاح وكانوا بعد على الكفر ، فكان يجوز أن يخونوا فيستباح رقهم مرة أخرى ولأن الطلاق يخص النسوان ، وقد ألقوا السلاح وأخذوا المساكن كالنسوان ، ولأن المعتق يخلى سبيله يذهب حيث شاء ، والمطلقة تجلس فى البيت للعدة ، وهم أمروا بالجلوس بمكة كالنسوان ، ثم إن القوم بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام ، فصاروا يدخلون فى دين الله أفواجا ، روى أنه عليه السلام صلى ثمان ركعات : أربعة صلاة الضحى ، وأربعة أخرى شكرا لله نافلة ، فهذا هو

وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾

قصة فتح مكة ، والمشهور عند المفسرين أن المراد من الفتح فى هذه السورة هو فتح مكة ، ومما يدل على أن المراد بالفتح فتح مكة أنه تعالى ذكره مقروناً بالنصر . وقد كان يجد النصر دون الفتح كبدر ، والفتح دون النصر كاجلاء بنى النضير ، فإنه فتح البلد لكن لم يأخذ القوم ، أما يوم فتح مكة اجتمع له الأمران النصر والفتح ، وصار الخلق له كالأرقاء حتى أعتقهم (القول الثانى) أن المراد فتح خيبر ، وكان ذلك على يد على عليه السلام ، والقصة مشهورة ، روى أنه استصحب خالد بن الوليد ، وكان يساميه فى الشجاعة ، فلما نصب السلم قال لخالد : أتتقدم ؟ قال لا ، فلما تقدم على عليه السلام سأله كم صعدت ؟ فقال لا أدرى لشدة الخوف ، وروى أنه قال لعلى عليه السلام ألا تصارعنى ، فقال ألست صرعتك ؟ فقال نعم لكن ذاك قبل إسلامى ، ولعل علياً عليه السلام إنما امتنع عن مصارعته ليقع صيته فى الإسلام أنه رجل يمتنع عنه على ، أو كان على يقول صرعتك حين كنت كافراً ، أما الآن وأنت مسلم فلا يحسن أن أصرعك (القول الثالث) أنه فتح الطائف وقصته طويلة (والقول الرابع) المراد النصر على الكفار ، وفتح بلاد الشرك على الإطلاق ، وهو قوله أبى مسلم (والقول الخامس) أراد بالفتح ما فتح الله عليه من العلوم ، ومنه قوله (وقل رب زدنى علماً) لكن حصول العلم لابد وأن يكون مسبوقاً بانشراح الصدر وصفاء القلب ، وذلك هو المراد من قوله (إذا جاء نصر الله) ويمكن أن يكون المراد بنصر الله اعانته على الطاعات والخيرات ، والفتح هو انتفاع عالم المعقولات والروحانيات .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا حملنا الفتح على فتح مكة ، فللناس فى وقت نزول هذه السورة قولان (أحدهما) أن فتح مكة كان سنة ثمان ، ونزلت هذه السورة سنة عشر ، وروى أنه عاش بعد نزول هذه السورة سبعين يوماً ، ولذلك سميت سورة التوديع (والقول الثانى) أن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة ، وهو وعد لرسول الله أن ينصره على أهل مكة ، وأن يفتحها عليه ، ونظيره قوله تعالى (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) وقوله (إذا جاء نصر الله والفتح) يقتضى الاستقبال ، إذ لا يقال فيما وقع : إذا جاء وإذا وقع ، وإذا صح هذا القول صارت هذه الآية من جملة المعجزات من حيث إنه خبر وجد مخبره بعد حين مطابقاً له ، والإخبار عن الغيب معجز (فإن قيل) لم ذكر النصر مضافاً إلى الله تعالى ، وذكر الفتح بالألف واللام ؟ (الجواب) الألف واللام للمعهود السابق ، فينصرف إلى فتح مكة .

قوله تعالى : ﴿ ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ رأيت يحتمل أن يكون معناه أبصرت ، وأن يكون معناه علمت ، فإن كان معناه أبصرت كان يدخلون فى محل النصب على الحال ، والتقدير : ورأيت الناس حال دخولهم

فى دين الله أفواجاً ، وإن كان معناه علمت كان يدخلون فى دين الله مفعولا ثانياً لعلمت ، والتقدير : علمت الناس داخلين فى دين الله .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ظاهر لفظ النـاس للعموم ، فيقتضى أن يكون كل الناس كانوا قد دخلوا فى الوجود مع أن الأمر ما كان كذلك (الجواب) من وجهين (الأول) أن المقصود من الإنسانية والعقل ، إنما هو الدين والطاعة ، على ما قال (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) فمن أعرض عن الدين الحق وبقى على الـكفر ، فكأنه ليس بإنسـان ، وهذا المعنى هو المراد من قوله (أولئـك كالأنعام بل هم أضل) وقال (آمنوا كما آمن الناس) وسئل الحسن بن على عليـه السـلام . من الناس ؟ فقال نحن الناس ، وأشياعنا أشباه الناس ، وأعداؤنا النسناس ، فقبله على عليه السلام بين عينيه ، وقال الله أعلم حيث يجعل رسالته . فإن قيل إنهم إنما دخلوا فى الإسـلام بعد مدة طويلة وتقصير كثير ، فـكيف استحقوا هذا المدح العظيم ؟ قلنا هذا فيه إشارة إلى سـعة رحمة الله ، فإن العبد بعد أن أتى بالـكفر والمعصية طول عمره ، فإذا أتى بالإيمان فى آخر عمره يقبل إيمانه ، ويمدحه هذا المدح العظيم ، ويروى أن الملائـكة يقولون لمثل هذا الإنسـان : أتيت وإن كنت قد أبيت . ويروى أنه عليه السـلام قال « لله أفرح بتوبة أحدكم من الضال الواجد ، والظمآن الوارد » والمعنى كان الرب تعالى يقول ربيته سبعين سنة ، فإن مات على كفره فلا بد وأن أبعثه إلى النار ، فحينئذ يضيع إحسانى إليه فى سبعين سـنة ، فكلما كانت مدة الـكفر والعصيان أكثر كانت التوبة عنها أشد قبولا (الوجه الثانى) فى الجواب ، روى أن المراد بالناس أهل اليمن ، قال أبو هريرة : لما نزلت هذه السورة ، قال رسول الله ﷺ « الله أكبر جاء نصر الله والفتح ، وجاء أهل اليمن قوم رقيقة قلوبهم الإيمان يمان والفقه يمـان والحـكمة يمانية ، وقال أجد نفس ربكم من قبل اليمن » .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال جمهور الفقهاء وكثير من المتكلمون إن إيمان المقلد صحيح ، واحتجوا بهذه الآية ، قالوا إنه تعالى حكم بصحة إيمـان أولئك الأفواج وجعله من أعظم المنن على محمد عليه السلام ، ولو لم يكن إيمانهم صحيحاً لمـا ذكره فى هذا المعرض . ثم انا نعلم قطعاً أنهم ما كانوا عالمين حدوث الأجساد بالدليـل ولا إثبات كونه تعالى منزهاً عن الجسمية والمـكان والحيز ولا إثبات كونه تعالى عالمـاً بجميع المعلومات التى لا نهاية لها ولا إثبـات قيام المعجز التام على يد محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا إثبات أن قيام المعجز كيف يدل على الصدق والعلم بأن أولئك الأعراب ما كانوا عالمين بهذه الدقائق ضرورى ، فعلمنا أن إيمان المقلد صحيح ، ولا يقال إنهم كانوا عالمين بأصول دلائل هذه المسائل لأن أصول هذه الدلائل ظاهرة ، بل إنمـا كانوا جاهلين بالتفاصيل إلا أنه ليس من شرط كون الإنسان مستدلا كونه عالمـاً بهـذه التفاصيل ، لأنا نقول إن الدليل لا يقبل الزيادة والنقصان ، فإن الدليل إذا كان مثـلا مركباً من عشر مقدمات ، فمن علم تسعة

منها ، وكان فى المقدمة العاشرة مقلداً كان فى النتيجة مقلداً لا محالة لأن فرع التقليد أولى أن يكون تقليداً وإن كان عالماً بمجموع تلك المقدمات العشرة استحال كون غيره أعرف منه بذلك الدليل ، لأن تلك الزيادة إن كانت جزأ معتبراً فى دلالة هذا الدليل لم تكن المقدمات العشرة الأولى تمام الدليل ، فإنه لابد معها من هذه المقدمة الزائدة ، وقد كنا فرضنا تلك العشرة كافية ، وإن لم تكن الزيادة معتبرة فى دلالة ذلك الدليل كان ذلك أمراً منفصلا عن ذلك الدليل غير معتبر فى كونه دليلا على ذلك المدلول ، فثبت أن العلم بكون الدليل دليلا لا يقبل الزيادة والنقصان ، فأما أن يقال إن أولئك الأعراب كانوا عالمين بجميع مقدمات دلائل هذه المسائل بحيث ما شذ عنهم من تلك المقدمات واحدة ، وذلك مكابرة أو ما كانوا كذلك . فحينئذ ثبت أنهم كانوا مقلدين ، ومما يؤكد ماذكرنا ماروى عن الحسن أنه قال لما فتح رسول الله مكة أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا إذا ظفر بأهل الحرم وجب أن يكون على الحق ، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل ، وكل من أرادهم بسوء ثم أخذوا يدخلون فى الإسلام أفواجاً من غير قتال ، هذا مارواه الحسن ، ومعلوم أن الاستدلال بأنه لما ظفر بأهل مكة وجب أن يكون على الحق ليس بجيد ، فعلمنا أنهم ماكانوا مستدلين بل مقلدين .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ دين الله هو الاسلام لقوله تعالى (إن الدين عند الله الإسلام) ولقوله (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) وللدين أسماء أخرى ، منها الإيمان قال الله تعالى (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) ومنها الصرط قال تعالى (صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض) ومنها كلمة الله ، ومنها النور (ليطفئوا نور الله) ومنها الهدى لقوله (يهدى به من يشاء) ومنها العروة (فقد استمسك بالعروة الوثقى) ومنها الحبل (واعتصموا بحبل الله) ومنها صبغة الله ، وفطرة الله ، وإنما قال (فى دين الله) ولم يقل فى دين الرب ، ولا سائر الأسماء لوجهين (الأول) أن هذا الاسم أعظم الأسماء لدلالته على الذات والصفات ، فكأنه يقول هذا الدين إن لم يكن له خصلة سوى أنه دين الله فإنه يكون واجب القبول (والثانى) لو قال دين الرب لكان يشعر ذلك بأن هذا الدين إنما يجب عليك قبوله لأنه رباك ، وأحسن إليك وحينئذ تكن طاعتك له معللة بطلب النفع ، فلايكون الإخلاص حاصلا ، فكأنه يقول أخلص الخدمة بمجرد أنى إله لا لنفع يعود إليك .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الفوج الجماعة الكثيرة كانت تدخل فيه القبيلة بأسرها بعد ماكانوا يدخلون فيه واحداً واحداً وإثنين إثنين ، وعن جابر بن عبد الله أنه بكى ذات يوم فقيل له ما يبكيك فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول « دخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وسيخرجون منه أفواجاً » نعوذ بالله من السلب بعد العطاء .

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه تعالى أمره بالتسبيح ثم بالحمد ثم بالاستغفار ، ولهذا الترتيب فوائد :

﴿ الفائدة الأولى ﴾ اعلم أن تأخير النصر سنين مع أن محمداً كان على الحق مما يثقل على القلب ويقع فى القلب أنى إذا كنت على الحق فلم لا تنصرنى ولم سلطت هؤلاء الكفرة على فلأجل الاعتذار عن هذا الخاطر أمر بالتسبيح ، أما على قولنا فالمراد من هذا التنزيه أنك منزه عن أن يستحق أحد عليك شيئاً بل كل ما تفعله فإنما تفعله بحكم المشيئة الإلهية فلك أن تفعل ما تشاء كما تشاء ففائدة التسبيح تنزيه الله عن أن يستحق عليه أحد شيئاً ، وأما على قول المعتزلة مافائدة التنزيه هو أن يعلم العبد أن ذلك التأخير كان بسبب الحكمة والمصلحة لا بسبب البخل وترجيح الباطل على الحق ، ثم إذا فرغ العبد عن تنزيه الله عما لا ينبغى فحينئذ يشتغل بحمده على ما أعطى من الإحسان والبر ، ثم حينئذ يشتغل بالاستغفار لذنوب نفسه (الوجه الثانى) أن للسائرين طريقين فنهم من قال مارأيت شيئاً إلا ورأيت الله بعده ، ومنهم من قال ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله ، ولا شك أن هذا الطريق أكمل ، أما بحسب المعالم الحكمية ، فلأن النزول من المؤثر إلى الأثر أجل مرتبة من الصعود من الأثر إلى المؤثر ، وأما بحسب أفكار أرباب الرياضات فلأن ينبوع النور هو واجب الوجود وينبوع الظلمة ممكن الوجود ، فالاستغراق فى الأول يكون أشرف لا محالة ، ولأن الاستدلال بالأصل على التبع يكون أقوى من الاستدلال بالتبع على الأصل ، وإذا ثبت هذا فنقول : الآية دالة على هذه الطريقة التى هى أشرف الطريقين وذلك لأنه قدم الاشتغال بالخالق على الاشتغال بالنفس فذكر أولا من الخالق أمرين (أحدهما) التسبيح (والثانى) التحميد ، ثم ذكروا فى المرتبة الثالثة الاستغفار وهو حالة ممزوجة من الالتفات إلى الخالق وإلى الخلق .

واعلم أن صفات الحق محصورة فى السلب والإيجاب والنفى والإثبات والسلوب مقدمة على الإيجابات فالتسبيح إشارة إلى التعرض للصفات السلبية التى لواجب الوجود وهى صفات الجلال ، والتحميد إشارة إلى الصفات الثبوتية له ، وهى صفات الإكرام ، ولذلك فإن القرآن يدل على تقدم الجلال على الإكرام ، ولما أشار إلى هذين النوعين من الاستغفار بمعرفة واجب الوجود نزل منه إلى الاستغفار لأن الاستغفار فيه رؤية قصور النفس ، وفيه رؤية جود الحق ، وفية طلب لما هو الأصلح والأكمل للنفس ، ومن المعلوم أن بقدر اشتغال العبد بمطالعة غير الله يبقى محروماً عن مطالعة حضرة جلال الله ، فلهذه الدقيقة أخر ذكر الاستغفار عن التسبيح والتحميد (الوجه الثالث) أنه إرشاد للبشر إلى التشبه بالملكية ، وذلك لأن أعلى كل نوع أسفل

متصل بأسفل النوع الأعلى ولهذا قيل آخر مراتب الإنسانية أول مراتب الملكية ثم الملائكة ذكروا فى أنفسهم (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) فقوله ههنا (فسبح بحمد ربك) إشارة إلى التشبه بالملائكة فى قولهم (ونحن نسبح بحمدك) وقوله ههنا (واستغفره) إشارة إلى قوله تعالى (ونقدس لك) لأنهم فسروا قوله (ونقدس لك) أى نجعل أنفسنا مقدسة لأجل رضاك والاستغفار يرجع معناه أيضا إلى تقديس النفس ، ويحتمل أن يكون المراد أنهم ادعوا لأنفسهم أنهم سبحوا بحمدى ورأوا ذلك من أنفسهم ، وأما أنت فسبح بحمدى واستغفر من أن ترى تلك الطاعة من نفسك بل يجب أن تراها من توفيقى وإحسانى ، ويحتمل أن يقال الملائكة كما قالوا فى حق أنفسهم (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) قال الله فى حقهم (ويستغفرون للذين آمنوا) فأنت يامحمد استغفر للذين جاؤا أفواجاً كالملائكة يستغفرون للذين آمنوا ويقولون (ربنا فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك) (الوجه الرابع) التسبيح هو التطهير ، فيحتمل أن يكون المراد طهر الكعبة من الأصنام وكسرها ثم قال (بحمد ربك) أن ينبغى أن يكون إقدامك على ذلك التطهير بواسطة الاستغفار بحمد ربك ، وإعانته وتقويته ، ثم إذا فعلت ذلك فلا ينبغى أن ترى نفسك آتياً بالطاعة اللائقة به ، بل يجب أن ترى نفسك فى هذه الحالة مقصرة ، فاطلب الاستغفار عن تقصيرك فى طاعته (والوجه الخامس) كأنه تعالى يقول يامحمد إما أن تكون معصوماً أو لم تكن معصوماً فإن كنت معصوما فاشتغل بالتسبيح والتحميد ، وإن لم تكن معصوماً فاشتغل بالاستغفار فتكون الآية كالتنبيه على أنه لافراغ عن التكليف فى العبودية كما قال (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى المراد من التسبيح وجهان (الأول) أنه ذكر الله بالتنزه سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال تنزيه الله عن كل سوء وأصله من سبح فإن السابح يسبح فى الماء كالطير فى الهواء ويضبط نفسه من أن يرسب فيه فيهلك أو يتلوث من مقر الماء ومجراه والتشديد للتبعيد لأنك تسبحه أى تبعده عما لا يجوز عليه ، وإنما حسن استعماله فى تنزيه الله عما لايجوز عليه من صفات الذات والفعل نفياً وإثباتاً لأن السمكة كما أنها لا تقبل النجاسة فكذا الحق سبحانه لا يقبل مالا ينبغى البتة فاللفظ يفيد التنزيه فى الذات والصفات والأفعال (والقول الثانى) أن المراد بالتسبيح الصلاة لأن هذا اللفظ وارد فى القرآن بمعنى الصلاة قال تعالى (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) وقال (فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس) والذى يؤكده أن هذه السورة من آخر ما نزل ، وكان عليه السلام فى آخر مرضه يقول « الصلاة وما ملكت أيمانكم » جعل يلجلجها فى صدره وما يقبض بها لسانه ، ثم قال بعضهم : عنى به صلاة الشكر صلاها يوم الفتح ثمان ركعات ، وقال آخرون هى صلاة الضحى ، وقال آخرون : صلى ثمان ركعات أربعة للشكر وأربعة الضحى وتسمية الصلاة بالتسبيح لما أنها لاتنفك عنه (وفيه تنبيه) على أنه يجب تنزيه صلاتك عن أنواع النقائص فى الأقوال والأفعال ، واحتج

أصحاب القول الأول بالأخبار الكثيرة الواردة فى ذلك ، روت عائشة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هـذه السورة يكثر أن يقول سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك ، وقالت أيضاً كان الرسول يقول كثيراً فى ركوعه سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفرلى وعنها أيضاً كان نبى الله فى آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجىء إلا قال سبحان الله وبحمده فقلت يارسول الله إنك تكثر من قوله سبحان الله وبحمده قال إنى أمرت بها ، وقرأ (إذا جاء نصر الله) وعن ابن مسعود « لما نزلت هذه السورة كان عليه السلام يكثر أن يقول سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لى إنك أنت التواب الغفور » وروى أنه قال « إنى لأستغفر الله كل يوم مائة مرة » .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الآية تدل على فضل التسبيح والتحميد حيث جعل كافياً فى أداء ما وجب عليه من شكر نعمة النصر والفتح ، ولم لا يكون كذلك وقوله « الصوم لى » من أعظم الفضائل للصوم فانه أضافه إلى ذاته ، ثم إنه جعل صدف الصلاة مساوياً للصوم فى هذا التشريف (وأن المساجد لله) فهذا يدل على أن الصلاة أفضل من الصوم بكثير ، ثم إن الصلاة صدف للأذكار ولذلك قال (ولذكر الله أكبر) وكيف لايكون كذلك ، والثناء عليه بمامدحه معلوم عقلا وشرعاً أما كيفية الصلاة فلا سبيل إليها إلا بالشرع ولذلك جعلت الصلاة كالمرصعة من التسبيح والتكبير . فإن قيل عدم وجوب التسبيحات يقتضى أنها أقل درجة من سائر أعمال الصلاة . قلنا الجواب عنه من وجوه : (أحدها) أن سائر أفعال الصلاة مما لا يميل القلب إليه فاحتيج فيها إلى الإيجاب أما التسبيح والتهليل فالعقل داع إليه والروح عاشق عليه فاكتفى بالحب الطبيعى ولذلك قال (والذين آمنوا أشد حباً لله) ، (وثانيها) أن قوله (فسبح) أمر والأمر المطلق للوجوب عند الفقهاء ، ومن قال الأمر المطلق للندب قال إنه ههنا للوجوب بقرينة أنه عطف عليه الاستغفار والاستغفار واجب ومن حق العطف التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه (وثالثها) أنها لو وجبت لكان العقاب الحاصل بتركها أعظم إظهاراً لمزيد تعظيمها فترك الإيجاب خوفاً من هذا المحذور .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أما الحمد فقد تقدم تفسيره ، وأما تفسير قوله (فسبح بحمد ربك) فذكروا فيه وجوهاً : (أحدها) قال صاحب الكشاف أى قل (سبحان الله والحمد لله) متعجباً مما أراك من عجيب انعامه أى اجمع بينهما تقول شربت الماء باللبن إذا جمعت بينهما خلطاً وشرباً (وثانيها) أنك إذا حمدت الله فقد سبحته لأن التسبيح داخل فى الحمد لأن الثناء عليه والشكر له لابد وأن يتضمن تنزيهه عن النقائص لأنه لا يكون مستحقاً للثناء إلا إذا كان منزهاً عن النقص ولذلك جعل مفتاح القرآن بالحمد لله وعند فتح مكة قال الحمد لله الذى نصر عبده »ولم يفتتح كلامه بالتسبيح فقوله (فسبح بحمد ربك) معناه سبحه بواسطة أن تحمده أى سبحه بهذا الطريق (وثالثها)

أن يكون حالا ، ومعناه سبح حامداً كقولك اخرج بسلاحك أى متسلحاً (ورابعها) يجوز أن يكون معناه سبح مقدرا أن تحمد بعد التسبيح كأنه يقول لا يتأتى لك الجمع لفظاً فاجمعهما نية كما أنك يوم النحر تنوى الصلاة مقدراً أن تنحر بعدها ، فيجتمع لك الثوابان فى تلك الساعة كذا ههنا (وخامسها) أن تكون هذه الباء هى التى فى قولك : فعلت هذا بفضل الله ، أى سبحه بحمد الله وإرشاده وإنعامه ، لا بحمد غيره ، ونظيره فى حديث الإفك قول عائشة « بحمد الله لا بحمدك » والمعنى : فسبحه بحمده ، فإنه الذى هداك دون غيره ، ولذلك روى أنه عليه السلام كان يقول « الحمد لله على الحمد لله » (وسادسها) روى السدى بحمد ربك ، أى بأمر ربك (وسابعها) أن تكون الباء صلة زائدة ، ويكون التقدير : سبح حمد ربك ، ثم فيه احتمالات (أحدها) اختر له أطهر المحامد وأزكاها (والثانى) طهر محامد ربك عن الرياء والسمعة ، والتوسل بذكرها إلى الأغراض الدنيوية الفاسدة (والثالث) طهر محامد ربك عن أن تقول جئت بها كما يليق به . وإليه الإشارة بقوله (وما قدروا الله حق قدره) (وثامنها) أى ائت بالتسبيح بدلا عن الحمد الواجب عليك ، وذلك لأن الحمد إنما يجب فى مقابلة النعم ، ونعم الله علينا غير متناهية ، فحمدها لا يكون فى وسع البشر ، ولذلك قال (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) فكأنه تعالى يقول : أنت عاجز عن الحمد ، فأت بالتسبيح والتنزيه بدلا عن الحمد (وتاسعها) فيه إشارة إلى أن التسبيح والحمد أمر ان لا يجوز تأخير أحدهما عن الثانى ، ولا يتصور أيضاً أن يؤتى بهما معاً ، فنظيره من ثبت له حق الشفعة وحق الرد بالعيب ، وجب أن يقول : اخترت الشفعة بردى ذلك المبيع ، كذا قال (فسبح بحمد ربك) ليقعا معاً ، فيصير حامداً مسبحاً فى وقت واحد معاً (وعاشرها) أن يكون المراد سبح قلبك ، أى طهر قلبك بواسطة مطالعة حمد ربك ، فإنك إذا رأيت أن الكل من الله ، فقد طهرت قلبك عن الالتفات إلى نفسك وجهدك ، فقوله (فسبح) إشارة إلى نفى ماسوى الله تعالى ، وقوله (بحمد ربك) إشارة إلى رؤية كل الأشياء من الله تعالى .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى قوله (واستغفره) وجوه (أحدها) لعله عليه السلام كان يتمنى أن ينتقم ممن آذاه ، ويسأل الله أن ينصره ، فلما سمع (إذا جاء نصر الله) استبشر ، لكن لو قرن بهذه البشارة شرط أن لا ينتقم لتنغصت عليه تلك البشارة ، فذكر لفظ الناس وأنهم يدخلون فى دين الله وأمره بأن يستغفر للداخلين لكن من المعلوم أن الاستغفار لمن لا ذنب له لا يحسن فعلم النبى ﷺ بهذا الطريق أنه تعالى ندبه إلى العفو وترك الانتقام ، لأنه لما أمره بأن يطلب لهم المغفرة فكيف يحسن منه أن يشتغل بالانتقام منهم ؟ ثم ختم بلفظ التواب كأنه يقول إن قبول التوبة حرفته فكل من طلب منه التوبة أعطاه كما أن البياع حرفته بيع الأمتعة التى عنده فكل من طلب منه شيئاً من تلك الأمتعة باعه منه ، سواء كان المشترى عدواً أو ولياً ، فكذا الرب سبحانه يقبل التوبة سواء كان التائب مكياً أو مدنياً ، ثم إنه عليه السلام امتثل أمر الرب تعالى فحين قالوا له أخ كريم وابن أخ كريم قال لهم

(لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم) أى أمرنى أن استغفر لكم فلا يجوز أن يردنى (وثالثها) أن قوله (واستغفره) إما أن يكون المراد واستغفر الله لنفسك أو لأمتك ، فإن كان المراد هو الأول فهو يتفرع على أنه هل صدرت عنه معصية أم لا فمن قال صدرت المعصية عنه ذكر فى فائدة الاستغفار وجوهاً : (أحدها) أنه لا يمتنع أن تكون كثرة الاستغفار منه تؤثر فى جعل ذنبه صغيرة (وثانيها) لزمه الاستغفار لينجو عن ذنب الإصرار (وثالثها) لزمه الاستغفار ليصير الاستغفار جابراً للذنب الصغير فلا ينتقص من ثوابه شيء أصلا ، وأما من قال ما صدرت المعصية عنه فذكر فى هذا الاستغفار وجوهاً : (أحدها) أن استغفار النبى جار مجرى التسبيح وذلك لأنه وصف الله بأنه غفار (وثانيها) تعبده الله بذلك ليقتدى به غيره إذ لا يأمن كل مكلف عن تقصير يقع منه فى عبادته ، وفيه تنبيه على أنه مع شدة اجتهاده وعصمته ما كان يستغنى عن الاستغفار فكيف من دونه (وثالثها) أن الاستغفار كان عن ترك الأفضل (ورابعها) أن الاستغفار كان بسبب أن كل طاعة أتى بها العبد فإذا قابلها بإحسان الرب وجدها قاصرة عن الوفاء بأداء شكر تلك النعمة ، فليستغفر الله لأجل ذلك (وخامسها) الاستغفار بسبب التقصير الواقع فى السلوك لأن السائر إلى الله إذا وصل إلى مقام فى العبودية ، ثم تجاوز عنه فبعد تجاوزه عنه يرى ذلك المقام قاصراً فيستغفر الله عنه ، ولما كانت مراتب السير إلى الله غير متناهية لاجرم كانت مراتب هذا الاستغفار غير متناهية ، أما الاحتمال (الثانى) وهو أن يكون المراد واستغفره لذنب أمتك فهو أيضاً ظاهر ، لأنه تعالى أمره بالاستغفار لذنب أمته فى قوله (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) فههنا لما كثرت الأمة صار ذلك الاستغفار أوجب وأهم ، وهكذا إذا قلنا المراد ههنا أن يستغفر لنفسه ولأمته .

﴿ المسألة السادسة ﴾ فى الآية إشكال ، وهو أن التوبة مقدمة على جميع الطاعات ، ثم الحمد مقدم على التسبيح ، لأن الحمد يكون بسبب الإنعام ، والإنعام كما يصدر عن المنزه فقد يصدر عن غيره ، فكان ينبغى أن يقع الابتداء بالاستغفار ، ثم بعده يذكر الحمد ، ثم بعده يذكر التسبيح ، فما السبب فى أن صار مذكوراً على العكس من هذا الترتيب ؟ (وجوابه) من وجوه (أولها) لعله ابتدأ بالأشرف ، فالأشرف نازلا إلى الاخس فالأخس ، تنبيهاً على أن النزول من الخالق إلى الخلق أشرف من الصعود من الخلق إلى الخالق (وثانيها) فيه تنبيه على أن التسبيح والحمد الصادر عن العبد إذا صار مقابلا بجلال الله وعزته صار عين الذنب ، فوجب الاستغفار منه (وثالثها) التسبيح والحمد إشارة إلى التعظيم لأمر الله ، والاستغفار إشارة إلى الشفقة على خلق [الله] ، والأول كالصلاة ، والثانى كالزكاة ، وكما أن الصلاة مقدمة على الزكاة ، فكذا ههنا .

﴿ المسألة السابعة ﴾ الآية تدل على أنه عليه الصلاة والسلام كان يجب عليه الإعلان بالتسبيح والاستغفار ، وذلك من وجوه (أحدها) أنه عليه الصلاة والسلام كان مأموراً بإبلاغ السورة

إلى كل الأمة حتى يبقى نقل القرآن متواتراً ، وحتى نعلم أنه أحسن القيام بتبليغ الوحي ، فوجب عليه الإتيان بالتسبيح والاستغفار على وجه الإظهار ليحصل هذا الغرض (وثانيها) أنه من جملة المقاصد أن يصير الرسول قدوة للأمة حتى يفعلوا عند النعمة والمحنة ، ما فعله الرسول من تجديد الشكر والحمد عند تجديد النعمة (وثالثها) أن الأغلب فى الشاهد أن يأتى بالحمد فى ابتداء الأمر ، فأمر الله رسوله بالحمد والاستغفار دائماً ، وفى كل حين وأوان ليقع الفرق بينه وبين غيره ، ثم قال واستغفره حين نعيت نفسه إليه ليفعل الأمة عند اقتراب آجالهم مثل ذلك .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ فى الآية سؤالات (أحدها) وهو أنه قال (إنه كان تواباً) على الماضى وحاجتنا إلى قبوله فى المستقبل (وثانيها) هلا قال غفاراً كما قاله فى سورة نوح (وثالثها) أنه قال (نصر الله) وقال (فى دين الله) فلم لم يقل بحمد الله بل قال (بحمد ربك) (والجواب) عن الأول من وجوه (أحدها) أن هذا أبلغ كأنه يقول ألست أثنيت عليكم بأنكم (خير أمة أخرجت للناس) ثم من كان دونكم كنت أقبل توبتهم كاليهود فإنهم بعد ظهور المعجزات العظيمة ، وفلق البحر ونتق الجبل ، ونزول المن والسلوى عصوا ربهم . وأتوا بالقبائح ، فلما تابوا قبلت توبتهم فإذا كنت قابلا للتوبة ممن دونكم أفلا أقبلها منكم (وثانيها) منذ كثير كنت شرعت فى قبول توبة العصاة والشروع ملزم على قبول النعمان فكيف فى كرم الرحمن (وثالثها) كنت تواباً قبل أن آمركم بالاستغفار أفلا أقبل وقد أمرتكم بالاستغفار (ورابعها) كأنه إشارة إلى تخفيف جنايتهم أى لستم بأول من جنى وتاب بل هو حرفتى ، والجناية مصيبة للجانى والمصيبة إذا عمت خفت (وخامسها) كأنه نظير ما يقال :

لقد أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقى

(والجواب) عن السؤال الثانى من وجوه (أحدها) لعله خص هذه الأمة بزيادة شرف لأنه لا يقال فى صفات العبد غفار ، ويقال تواب إذا كان آتياً بالتوبة ، فيقول تعالى كنت لى سمياً من أول الأمر أنت مؤمن ، وأنا مؤمن ، وإن كان المعنى مختلفاً فتب حتى تصير سمياً لى آخر الأمر ، فأنت تواب ، وأنا تواب ، ثم إن التواب فى حق الله ، هو أنه تعالى يقبل التوبة كثيراً فنبه على أنه يجب على العبد أن يكون إتيانه بالتوبة كثيراً (وثانيها) إنما قيل تواباً لأن القائل قد يقول أستغفر الله وليس بتائب ، ومنه قوله « المستغفر بلسانه المصر بقلبه كالمستهزىء بربه » إن قيل فقد يقول أتوب ، وليس بتائب ، قلنا فإذاً يكون كاذباً ، لأن التوبة اسم للرجوع والندم ، بخلاف الاستغفار فإنه لا يكون كاذباً فيه ، فصار تقدير الكلام ، واستغفره بالتوبة ، وفيه تنبيه على أن خواتيم الأعمال يجب أن تكون بالتوبة والاستغفار ، وكذا خواتيم الأعمال . وروى أنه لم يجلس مجلساً إلا ختمه بالاستغفار (والجواب) عن السؤال الثالث أنه تعالى راعى العدل فذكر اسم الذات مرتين وذكر اسم الفعل مرتين (أحدهما) الرب (والثانى) التواب ، ولما كانت التربية تحصل أولا والتوابية آخراً ، لاجرم ذكر اسم الرب أولا واسم التواب آخراً .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ الصحابة اتفقوا على أن هذه السورة دلت على أنه نعى لرسول الله ﷺ روى أن العباس عرف ذلك وبكى فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما يبكيك فقال نعيت إليك نفسك فقال الأمر كما تقول ، وقيل إن ابن عباس هو الذى قال ذلك فقال عليه الصلاة والسلام «لقد أوتى هذا الغلام علماً كثيراً» روى أن عمر كان يعظم ابن عباس ويقربه ويأذن له مع أهل بدر ، فقال عبدالرحمن أتأذن لهذا الفتى معنا ، وفى أبنائنا من هو مثله ؟ فقال لأنه ممن قد علمتم قال ابن عباس فأذن لهم ذات يوم وأذن لى معهم فسألهم عن قول الله (إذا جاء نصر الله) وكأنه ماسألهم إلا من أجلى فقال بعضهم أمر الله نبيه إذا فتح أن يستغفره ويتوب إليه ، فقلت ليس كذلك ولكن نعيت إليه نفسه فقال عمر ما أعلم منها إلا مثل ماتعلم ، ثم قال كيف تلوموننى عليه بعد ماترون ، وروى أنه لما نزلت هذه السورة خطب وقال « إن عبداً خيره الله بين الدنيا وبين لقائه والآخرة فاختار لقاء الله» فقال السائل وكيف دلت هذه السورة على هذا المعنى ؟ (الجواب) من وجوه (أحدها) قال بعضهم إنما عرفوا ذلك لما روينا أن الرسول خطب عقيب السورة وذكر التخيير (وثانيها) أنه لما ذكر حصول النصر والفتح ودخول الناس فى الدين أفواجاً دل ذلك على حصول الكمال والتمام ، وذلك يعقبه الزوال كما قيل :

إذا تم شىء دنا نقصه توقع زوالا إذا قيل تم

(وثالثها) أنه أمره بالتسبيح والحمد والاستغفار مطلقا واشتغاله به يمنعه عن الاشتغال بأمر الأمة فكان هذا كالتنبيه على أن أمر التبليغ قد تم وكمل ، وذلك يوجب الموت لأنه لو بقى بعد ذلك لكان كالمعزول عن الرسالة وأنه غير جائز (ورابعها) قوله (واستغفره) تنبيه على قرب الأجل كأنه يقول قرب الوقت ودنا الرحيل فتأهب للأمر ، ونبهه به على أن سبيل العاقل إذا قرب أجله أن يستكثر من التوبة (وخامسها) كأنه قيل له كان منتهى مطلوبك فى الدنيا هذا الذى وجدته ، وهو النصر والفتح والاستيلاء ، والله تعالى وعدك بقوله « وللآخرة خير لك من الأولى » فلما وجدت أقصى مرادك فى الدنيا فانتقل إلى الآخرة لتفوز بتلك السعادات العالية .

﴿ المسألة العاشرة ﴾ ذكرنا أن الأصح هو أن السورة نزلت قبل فتح مكة . وأما الذين قالوا إنها نزلت بعد فتح مكة ، فذكر الماوردى أنه عليه السلام لم يلبث بعد نزول هذه السورة إلا ستين يوماً مستديماً للتسبيح والاستغفار ، وقال مقاتل عاش بعدها حولا ونزل (اليوم أكملت لكم دينكم) فعاش بعده ثمانين يوماً ثم نزل آية الكلالة ، فعاش بعدها خمسين يوماً ، ثم نزل (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً ثم نزل (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله) فعاش بعدها أحد عشر يوماً وفى رواية أخرى عاش بعدها سبعة أيام ، والله أعلم كيف كان ذلك .

تفسير سورة «النصر»

وهي مدنية بإجماع. وتُسمَّى سورة «التوديع»[٣]. وهي ثلاثُ آيات. وهي آخرُ سورة نزلت جميعاً؛ قاله ابن عباس في «صحيح» مسلم[٤].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾

النصر: العَوْن؛ مأخوذٌ من قولهم: قد نَصَرَ الغيثُ الأرضَ: إذا أعان على نَباتها، ومَنَعَ[٥] من قَحْطِها. قال الشاعر:

إذا انسلخ الشهرُ الحرامُ فودِّعي ... بلادَ تميمٍ وانْصُري أرضَ عامِرِ[٦]

ويُروى:

إذا دخلَ الشهرُ الحرامُ فجاوِزِي ... بلادَ تميم وانصُري أرضَ عامِرِ[٧]

يقال: نصره على عدوِّه ينصره نصراً، أي: أعانه. والاسم النُّصْرة. واستنصره على عدوِّه: أي: سأله أن ينصره عليه. وتناصروا: نصر بعضُهم بعضاً.

---

(١) السبعة ص ٦٩٩ ، والتيسير ص ٢٢٥ .
(٢) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٤٠٤ .
(٣) ذكره الرازي في تفسيره ٣٢/ ١٥٥ .
(٤) الحديث (٣٠٢٤).
(٥) لفظ: ومنع، ليس في (م). والكلام من النكت والعيون ٥/ ٣٥٩ .
(٦) قائله الراعي النميري، وهو في ديوانه ص ١٣٣ ، وسلف ٢/ ٨٠ .
(٧) هذه رواية الجوهري في الصحاح (نصر) والكلام منه.

ثم قيل: المراد بهذا النصر نصرُ الرسول ﷺ على قريش؛ قاله[1] الطبريّ[2]. وقيل: نَصْره على مَن قاتله من الكفار؛ فإنَّ عاقبةَ النصر كانت له. وأما الفتحُ فهو فتح مكة؛ عن الحسن ومجاهد وغيرهما. وقال ابن عباس وسعيد بن جُبير: هو فتحُ المدائن والقصور. وقيل: فتحُ سائر البلاد. وقيل: ما فتحه عليه من العلوم.

و«إذا» بمعنى قد، أي: قد جاء نصرُ الله؛ لأن نزولَها بعد الفتح. ويمكن أن يكون معناه: إذا يجيئك.

قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: العرب وغيرهم ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ أي: جماعاتٍ، فوجاً بعد فوج. وذلك لما فُتحت مكة قالت العرب: أما إذا ظَفِرَ محمد بأهل الحرم، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان[3]. فكانوا يُسْلِمون أفْواجاً؛ أمّةً أمّةً[4]. قال الضحاك: والأُمّة: أربعون رجلاً[5]. وقال عكرمة ومقاتل: أراد بالناس أهل اليمن. وذلك أنه ورد من اليمن سبع مئة إنسان مؤمنين طائعين[6]. بعضهم يُؤَذِّنون، وبعضهم يقرؤون القرآن، وبعضهم يُهَلِّلون؛ فَسُرَّ النبيُّ ﷺ بذلك، وبكى عمر وعباس[7].

وروى عكرمة عن ابن عباس أن النبيَّ ﷺ قرأ: «﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ وجاء أهلُ اليَمَنِ رَقيقةً أَفْئِدَتُهُمْ، لَيِّنَةً طِباعهم، سَخِية قُلوبهم، عظيمةً خشيتُهم، فدخلوا في دين الله أفواجًا»[8].

---

(١) لفظ: قاله، ليس في (م).

(٢) في تفسيره ٢٤/ ٧٠٥، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٥٩ - ٣٦٠، وما بعده منه.

(٣) اليد: القوة والقدرة والسلطان. القاموس (يدي).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٥٤١.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٦٠.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٢، وتفسير البغوي ٤/ ٥٤١.

(٧) في (د) و(م): وابن عباس. وسيأتي خبرهما في تفسير الآية التالية.

(٨) أخرجه الطبراني في الكبير (١١٩٠٣) بنحوه.

وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أتاكم أهلُ اليمن، هم أضعفُ قلوباً، وأرقُّ أفئدةً. الفِقهُ يَمَانٍ، والحِكْمة يَمَانِية»[١]. ورُوي أنه ﷺ قال: «إني لأجدُ نَفَس ربِّكم مِن قِبلِ اليَمَنْ»[٢] وفيه تأويلان: أحدهما: أنه الفَرَج؛ لِتتابع إسلامهم أفواجاً. والثاني: معناه: أن الله سبحانه وتعالى نَفَّس الكرب عن نبيِّه ﷺ بأهل اليمن، وهم الأنصار. وروى جابر بن عبد الله قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الناسَ دخلوا في دين الله أفواجاً، وسيخرجون منه أفواجاً» ذكره الماورديّ[٣]، ولفظ الثعلبيّ: وقال أبو عمار: حدّثني جارٌ لجابر، قال: سألني جابر عن حال الناس، فأخبرته عن حال اختلافهم وفُرْقتهم، فجعل يبكي ويقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إن الناسَ دخَلُوا في دين الله أفواجاً، وسَيَخْرُجُونَ من دينِ اللهِ أَفْواجًا»[٤].

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ أي: إذا صَليت فأكثر من ذلك. وقيل: معنى سَبِّح: صَلِّ؛ عن ابن عباس[٥]. «بِحَمْدِ ربك» أي: حامداً له على ما آتاك من الظَّفَر والفتح. «واسْتَغْفِرْهُ» أي: سَلِ اللهَ الغُفران. وقيل: «فسبِّح» المراد به: التنزيهُ؛ أي: نَزِّهه عما لا يجوز عليه مع شُكرك له. «واسْتَغْفِرْهُ» أي: سَلِ اللهَ الغُفْران مع مُداومةِ الذِّكر. والأوّل أظهر.

روى الأئمة ـ واللفظ للبخاريّ ـ عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: ما صلّى رسولُ الله ﷺ صلاةً بعد أن نزلت عليه سورةُ «إِذَا جاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ» إلا يقول:

---

(١) صحيح مسلم (٥٢): (٨٤)، وأخرجه أحمد (٧٢٠٢)، والبخاري (٤٣٩٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٠٩٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ ولفظه: «ألا إن الإيمان يمان، والحكمة يمانية، وأَجِدُ نَفَسَ ربكم من قبل اليمن..».

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٣٦٠، وتخريج حديث جابر ﷺ في التعليق التالي.

(٤) أخرجه أحمد (١٤٦٩٦)، وإسناده ضعيف لجهالة جار جابر ﷺ.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦١ .

«سبحانَكَ رَبَّنا وَبِحَمْدِك، اللهمَّ اغفِرْ لي»[١].

وعنها قالت: كان رسولُ الله ﷺ يُكْثِرُ أن يقولَ في ركوعه وسجوده: «سُبحانكَ اللهمَّ رَبَّنا وَبِحَمْدِكَ، اللهمَّ اغفِرْ لِي»، يتأوّل القرآن[٢].

وفي غير الصحيح: وقالت أُمُّ سَلَمة: كان النبيّ ﷺ آخرَ أمرِه لا يقوم ولا يقعد، ولا يجيء ولا يذهب إلا قال: «سبحان اللهِ وبحمِدِه، أَسْتغفِرُ اللهَ وأَتُوبُ إليه، قال: «فإنّي أُمِرت بها»، ثم قرأ: «إذا جاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ» إلى آخرها[٣].

وقال أبو هريرة: اجتهدَ النبيّ ﷺ بعد نزولها، حتى تَوَرَّمَت قدماه. ونَحَل جسمه، وقلَّ تَبَسُّمه، وكَثُرَ بكاؤه. وقال عِكرمة: لم يكن النبيّ ﷺ قَطُّ أشدَّ اجتهاداً في أمور الآخرة ما كان منه عند نزولها.

وقال مقاتل: لما نزلت قرأها النبيّ ﷺ على أصحابه، ومنهم أبو بكر وعمر وسعد ابن أبي وقاص، ففرِحوا واستبشروا، وبكى العباس، فقال له النبيّ ﷺ: «ما يُبْكِيكَ يا عَمّ؟» قال: نُعِيَتْ إليكَ نَفْسُك. قال: «إنه لكما تقول»؛ فعاش بعدها ستين يوماً، ما رُئِي فيها ضاحكاً مستبشراً[٤].

وقيل: نزلت في مِنًى بعد أيام التشريق، في حجَّة الوداع[٥]، فبكى عُمر والعباس، فقيل لهما: إنَّ هذا يومُ فرح، فقالا: بل فيه نَعْيُ النبيِّ ﷺ. فقال النبيّ ﷺ: «صَدَقتما، نُعِيت إليّ نفسي».

وفي البخاريّ وغيره عن ابن عباس قال: كان عمرُ بن الخطاب يَأْذَن لأهل بدر، ويأذن لي معهم. قال: فَوجَدَ بعضُهم من ذلك، فقالوا: يأذن لهذا الفتى معنا ومن أبنائنا من هو مِثْله! فقال لهم عمر: إنه مَنْ قد علمتم. قال: فأَذِنَ لهم ذاتَ يوم، وأَذِنَ

---

(١) صحيح البخاري (٤٩٦٧)، وأخرجه أحمد (٢٥٩٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٦٨)، ومسلم (٤٨٤).

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧١١ بنحوه، وأورده ابن كثير في تفسيره عند هذه الآية، وقال: غريب.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٩٥ ، والنكت والعيون ٥/ ٣٦١ - ٣٦٢ ، قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٨٩ : ذكره الثعلبي عن مقاتل، وسنده إليه دون الكتاب.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٣ عن ابن عمر رضي الله عنهما.

لي معهم، فسألهم عن هذه السورة «إذا جاء نصرُ اللهِ والفتح» فقالوا: أمر الله جلّ وعزّ نبيَّه ﷺ إذا فُتِحَ عليه أن يستغفره، وأن يتوب إليه. فقال: ما تقول يا ابن عباس؟ قلت: ليس كذلك، ولكن أخبر اللهُ نبيَّه ﷺ حضورَ أجله، فقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فذلك علامةُ موتك ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾. فقال عمر ﷺ: تلومونني عليه؟! وفي البخاريّ: فقال عمر: ما أعلمُ منها إلا ما تقول[١]. ورواه الترمذيّ، قال: كان عمرُ يسألني مع أصحاب النبيّ ﷺ، فقال له عبد الرحمن ابن عوف: أتسألُه ولنا بنون مِثْلُه؟ فقال له عمر: إنه مِنْ حيثُ نعلم. فسأله عن هذه الآية: «إذا جاء نصر اللهِ والفتح». فقلت: إنما هو أجلُ رسولِ الله ﷺ، أَعْلَمَه إيَّاه، وقرأ السورةَ إلى آخرها. فقال له عمر: والله، ما أعلمُ منها إلا ما تعلم. قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[٢].

فإن قيل: فماذا يغفر للنبيِّ ﷺ حتى يُؤمر بالاستغفار؟ قيل له: كان النبيّ ﷺ يقول في دعائه: «رَبِّ اغفِرْ لي خَطيئَتِي وجَهْلِي، وإِسْرافي في أَمْرِي كُلِّه، وما أنت أعلمُ به مني. اللهم اغفِرْ لي خَطَئي وعَمْدِي، وجَهْلِي وهَزْلي، وكل ذلك عندي. اللهم اغفر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أَعلَنْت وما أسْرَرْت، أنت المُقدِّم وأنت المُؤَخِّر، إنكَ على كلِّ شيءٍ قَدِير»[٣]. فكان ﷺ يستقصر نَفْسَه لعظم ما أنعم الله به عليه، ويرى قُصوره عن القيام بحق ذلك ذُنُوباً[٤].

ويَحتمِلُ أن يكون بمعنى: كُنْ مُتعلِّقًا به، سائلاً راغباً، متضرعاً على رؤية التقصير في أداء الحقوق؛ لئلا ينقطع إلى رؤية الأعمال. وقيل: الاستغفار تَعَبُّدٌ، يجب إتيانُه، لا للمغفرة، بل تعبداً. وقيل: ذلك تنبيهٌ لأمته، لكيلا يأمنوا ويتركوا

(١) صحيح البخاري (٤٩٧٠)، وأخرجه أحمد (٣١٢٨).

(٢) سنن الترمذي (٣٣٦٢)، وهو عند البخاري (٣٦٢٧).

(٣) أخرجه أحمد (١٩٤٨٩) و(١٩٧٣٨)، والبخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٨٠ .

الاستغفار. وقيل: «واستغفره» أي: استغْفِر لأُمتك.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾: أي: على المسبحين والمستغفرين، يتوبُ عليهم ويرحمهم، ويقبل توبتَهم. وإذا كان عليه الصلاة والسلام وهو معصومٌ يؤمر بالاستغفار، فما الظنُّ بغيره؟ روى مسلم عن عائشة قالت: كان رسولُ الله ﷺ يُكْثر من قول: «سبحان الله وَبِحَمْدِهِ، أَستغفِرُ اللهَ وأَتُوبُ إليهِ». قالت: فقلت: يا رسولَ الله، أراكَ تُكثِرُ من قول: «سبحان اللهِ وبِحَمْدِهِ، أَستغفر اللهَ وأتوبُ إليه؟» فقال: «خَبَّرني ربي أني سأرى علامةً في أمتي، فإذا رأَيتها أكثرتُ من قول سُبْحان اللهِ وبِحَمْدِهِ، أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه، فقد رأيتُها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فتح مكة ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾»[1].

وقال ابن عمر: نزلت هذه السورة بِمِنًى في حِجَّة الوَداع، ثم نزلت ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة: ٣] فعاش بعدهما النبي ﷺ ثمانين يوماً. ثم نزلت آية الكَلالة [النساء: ١٧٦]، فعاش بعدها خمسين يوماً. ثم نزلت ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ [التوبة: ١٢٨] فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً. ثم نزلت ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ٢٨١] فعاش بعدها أحداً وعشرين يوماً[2]. وقال مقاتل: سبعة أيام. وقيل غير هذا مما تقدَّم في «البقرة» بيانُه[3]، والحمد لله.

(١) صحيح مسلم (٤٨٤)، وهو في مسند أحمد (٢٤٠٦٥).

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦٢ دون ذكر آية الكلالة، ولم ينسبه وقول مقاتل الذي بعده منه.

(٣) ٤/ ٤٢١.

تفسير سورة إذا جاء نصر الله والفتح (١)

وهى مدنية .

قد تقدم أنها تعدل ربع القرآن ، و ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ تعدل ربع القرآن .

وقال النسائى : أخبرنا محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ، أخبرنا جعفر ، عن أبى العُمَيس (ح) وأخبرنا أحمد بن سليمان ، حدثنا جعفر بن عون ، حدثنا أبو العُمَيس ، عن عبد المجيد بن سهيل (٢)، عن عُبَيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : قال لى ابن عباس : يا ابن عتبة ، أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت (٣) ؟ قلت : نعم ، ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ . قال : صدقت (٤) .

وروى الحافظ أبو بكر البزار والبيهقى ، من حديث موسى بن عبيدة الرّبذى (٥) ، عن صدقة بن يَسَار ، عن ابن عمر قال : أنزلت هذه السورة : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق ، فعرف أنه الوداع ، فأمر براحلته القصواء فَرحلت ، ثم قام فخطب الناس ، فذكر خطبته المشهورة (٦) .

وقال الحافظ البيهقى : أخبرنا على بن أحمد بن عبدان ، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار ، حدثنا الأسفاطى ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا عباد بن العوام ، عن هلال بن خباب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ، دعا رسول الله ﷺ فاطمة (٧) وقال : «إنه قد نُعيت إلىّ نفسى » ، فبكت ثم ضحكت ، وقالت : أخبرنى أنه نُعيت إليه نفسُه فبكيت ، ثم قال : «اصبرى فإنك أول أهلى لحاقاً بى » فضحكت (٨).

وقد رواه النسائى ــ كما سيأتى ـ بدون ذكر فاطمة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾ .

قال البخارى : حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا أبو عَوانة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس قال : كان عمر يُدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وَجَد فى نفسه ، فقال:

---

(١) فى م : « تفسير سورة النصر » . (٢) فى أ : « سهل » . (٣) فى م : « نزلت من القرآن » .

(٤) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٧١٣) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٣٠٢٤) من طريق جعفر بن عون به.

(٥) فى أ : « الزبيرى » .

(٦) سنن البيهقى الكبرى (٥/ ١٥٢) ، وموسى بن عبيدة ضعيف .

(٧) فى أ : « فاطمة ابنته » .

(٨) دلائل النبوة للبيهقى (٧/ ١٦٧) .

لم يَدْخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه ممن علمتم [١] . فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم ، فما رُؤيتُ أنه دعانى فيهم يومئذ إلا ليُريهم فقال: ما تقولون فى قول الله ، عز وجل : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ** ﴾ ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نَحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفُتح علينا . وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً ، فقال لى : أكذلك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا . فقال : ما تقول ؟ فقلت : هو أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه له ، قال: ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ** ﴾ فذلك علامة أجلك، ﴿ **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ﴾. فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول. تفرد به البخارى [٢] .

وروى ابن جرير ، عن محمد بن حُمَيد ، عن مِهْران ، عن الثورى ، عن عاصم ، عن أبى رَزين ، عن ابن عباس ، فذكر مثل هذه القصة ، أو نحوها [٣] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن فُضَيل ، حدثنا عطاء ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس قال : لما نَزَلت : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ** ﴾ ، قال رسول الله ﷺ : « نُعيت إلىّ نفسى » . . بأنه مقبوض فى تلك السنة . تفرد به أحمد [٤] .

وروى العوفى ، عن ابن عباس ، مثله . وهكذا قال مجاهد ، وأبو العالية ، والضحاك ، وغير واحد : إنها أجل رسول الله ﷺ نُعى إليه .

وقال ابن جرير : حدثنى إسماعيل بن موسى ، حدثنا الحسين بن عيسى الحنفى [٥] ، عن مَعْمَر ، عن الزهرى ، عن أبى حازم ، عن ابن عباس قال : بينما رسول الله ﷺ فى المدينة إذ قال: « الله أكبر ، الله أكبر ! جاء نصر الله والفتح ، جاء أهل اليمن ». قيل : يا رسول الله ، وما أهل اليمن ؟ قال : « قوم رقيقة قلوبهم ، لينة طباعهم ، الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية » [٦] .

ثم رواه عن ابن عبد الأعلى ، عن ابن ثور ، عن معمر ، عن عكرمة ، مرسلا .

وقال الطبرانى : حدثنا زكريا بن يحيى ، حدثنا أبو كامل الجَحْدَرِىّ ، حدثنا أبو عَوَانة ، عن هلال بن خَبَّاب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ** ﴾ ، حتى ختم السورة ، قال : نُعيت لرسول الله ﷺ نفسه حين نزلت ، قال : فأخذ بأشد ما كان قط اجتهاداً فى أمر الآخرة . وقال رسول الله ﷺ بعد ذلك : « جاء الفتحُ ونصر الله ، وجاء أهل اليَمن » . فقال رجل : يا رسول الله ، وما أهل اليمن ؟ قال : « قوم رقيقة قلوبهم ، لينة قلوبهم ، الإيمان يَمان ، والفقه يمان » [٧] .

(١) فى م : « ممن قد علمتم » .
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٠) .
(٣) تفسير الطبرى (٣٠/٢١٥) .
(٤) المسند (١/٢١٧) .
(٥) فى أ : « الثقفى » .
(٦) تفسير الطبرى (٣٠/٢١٥) .
(٧) المعجم الكبير (١١/٣٢٨) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وَكيع ، عن سفيان ، عن عاصم ، عن أبى رَزين ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ علم النبى ﷺ أنه قد نُعيت إليه نفسه ، فقيل : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ، السورة كلها (١) .

حدثنا وَكيع ، عن سفيان ، عن عاصم ، عن أبى رَزين : أن عمر سأل ابن عباس عن هذه الآية : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ قال : لما نزلت نُعيت إلى رسول الله ﷺ نفسه (٢) .

وقال الطبرانى : حدثنا إبراهيم بن أحمد بن عُمَر الوكيعى ، حدثنا أبى ، حدثنا جَعفر بن عون ، عن أبى العُمَيس ، عن أبى بكر بن أبى الجهم ، عن عُبَيد الله بن عَبد الله بن عتبة ، عن ابن عباس قال : آخر سورة نزلت من القرآن جميعاً : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (٣) .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عمرو بن مُرّة ، عن أبى البَختُرى الطائى (٤) ، عن أبى سعيد الخدرى ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : لما نزلت هذه السورة : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾، قرأها رسول الله ﷺ حتى ختمها ، فقال : « الناس حيز ، وأنا وأصحابى حيز» . وقال : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية » . فقال له مَرْوان : كذبت ــ وعنده رافع بن خَديج ، وزيد بن ثابت ، قاعدان معه على السرير ــ فقال أبو سعيد : لو شاء هذان لحدثاك، ولكن هذا يخاف أن تنزعه عن عرافة قومه ، وهذا يخشى أن تنزعه عن الصدقة . فرفع مروان عليه الدرة ليضربه ، فلما رأيا ذلك قالا : صدق (٥) .

تفرد به أحمد ، وهذا الذى أنكره مروان على أبى سعيد ليس بمنكر ، فقد ثبت من رواية ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح : « لا هجرة ، ولكن جهاد ونية ، ولكن إذا استنفرتم فانفروا » . أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما (٦) .

فالذى فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر ، رضى الله عنهم أجمعين ، مِنْ أنه قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون أن نحمد الله ونشكره ونسبحه ، يعنى نصلى ونستغفره ــ معنى مليح صحيح ، وقد ثبت له شاهد من صلاة النبى ﷺ يوم فتح مكة وقت الضحى ثمانى ركعات ،فقال قائلون : هى صلاة الضحى . وأجيبوا بأنه لم يكن يواظب عليها ، فكيف صلاها ذلك اليوم وقد كان مسافراً لم يَنْو الإقامة بمكة ؟ ولهذا أقام فيها إلى آخر شهر رمضان قريباً من تسعة عشر يوماً يقصر الصلاة ويُفطر هو وجميع الجيش ، وكانوا نحواً من عشرة آلاف . قال هؤلاء : وإنما كانت صلاة الفتح ، قالوا : فيستحب لأمير الجيش إذا فتح بلداً أن يصلى فيه أول ما يدخله ثمانى ركعات .

---

(١) المسند (١/٣٤٤) .

(٢) المسند (١/٣٥٦) .

(٣) المعجم الكبير (١٠/٣٦٩) .

(٤) فى أ : « عن أبى البخترى عن الطائى » .

(٥) المسند (٣/٢٢) .

(٦) صحيح البخارى برقم (١٣٤٩،١٨٣٤) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٣) .

وهكذا فعل سعد بن أبى وقاص يوم فتح المدائن ، ثم قال بعضهم : يصليها كلها بتسليمة واحدة . والصحيح أنه يسلم من كل ركعتين ، كما ورد فى سنن أبى داود : أن رسول الله ﷺ كان يسلم يوم الفتح من كل ركعتين . وأما ما فسر به ابن عباس وعمر ، رضى الله عنهما ، من أن هذه السورة نُعِى فيها إلى رسول الله ﷺ نفسه (١) الكريمة ، واعلم أنك إذا فتحت مكة - وهى قريتك التى أخرجتك - ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، فقد فرغ شغلنا بك فى الدنيا ، فتهيأ للقدوم علينا والوفود إلينا ، فالآخرة خير لك من الدنيا ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ولهذا قال : ﴿ **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ﴾ .

قال النسائى : أخبرنا عمرو بن منصور ، حدثنا محمد بن محبوب ، حدثنا أبو عوانة ، عن هلال ابن خباب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ** ﴾ ، إلى آخر السورة ، قال : نُعيت لرسول الله ﷺ نفسُه حين أنزلت ، فأخذ فى أشدّ ما كان اجتهاداً فى أمر الآخرة ، وقال رسول الله ﷺ بعد ذلك : « جاء الفتح ، وجاء نصر الله ، وجاء أهل اليمن » . فقال رجل : يا رسول الله ، وما أهل اليمن ؟ قال : « قوم رقيقة قلوبهم ، لَيِّنة قلوبهم ، الإيمان يَمانٍ ، والحكمة يمانية ، والفقه يمان » (٢) .

وقال البخارى : حدثنا عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا جَرير ، عن منصور ، عن أبى الضحَى ، عن مسروق ، عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى » يتأول القرآن .

وأخرجه بقية الجماعة إلا الترمذى ، من حديث منصور ، به (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبى عدى ، عن داود ، عن الشعبى ، عن مسروق قال : قالت عائشة : كان رسول الله ﷺ يكثر فى آخر أمره من قول : « سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه » . وقال : « إن ربى كان أخبرنى أنى سأرى علامة فى أمتى ، وأمرنى إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره ، إنه كان توابا ، فقد رأيتها : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ﴾ » .

ورواه مسلم من طريق داود ــ وهو ابن أبى هند ــ به (٤) .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو السائب ، حدثنا حفص ، حدثنا عاصم ، عن الشعبى ، عن أم سلمة قالت : كان رسول الله ﷺ فى آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ، ولا يذهب ولا يجىء ، إلا قال: « سبحان الله وبحمده » . فقلت : يا رسول الله ، إنك تكثر من سبحان الله وبحمده ، لا تذهب ولا تجىء ، ولا تقوم ولا تقعد إلا قلت : سبحان الله وبحمده ؟ قال : « إنى أمرت بها » ، فقال:

(١) فى م : « روحه » .

(٢) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٧١٢) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٦٨) وصحيح مسلم برقم (٤٨٤) وسنن أبى داود برقم (٨٧٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٧١٠) وسنن ابن ماجة برقم (٨٨٩) .

(٤) المسند (٦/ ٣٥) وصحيح مسلم برقم (٤٨٤) .

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ، إلى آخر السورة [١] .

غريب ، وقد كتبنا حديث كفارة المجلس من جميع طرقه وألفاظه فى جزء مُفرد ، فيكتب هاهنا[٢] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن أبى عُبَيدة ، عن عبد الله قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ،كان يكثر إذا قرأها ـ وركَعَ ـ أن يقول: « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك،اللهم اغفر لى إنك أنت التواب الرحيم» ثلاثا [٣] .

تفرد به أحمد . ورواه ابن أبى حاتم عن أبيه ، عن عمرو بن مُرّة ، عن شعبة ، عن أبى إسحاق، به .

والمراد بالفتح هاهنا فتح مكة قولاً واحداً ، فإن أحياء العرب كانت تَتَلَوّم بإسلامها فتح مكة ، يقولون : إن ظهر على قومه فهو نبى . فلما فتح الله عليه مكة دخلوا فى دين الله أفواجاً ، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً ، ولم يبق فى سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام ، ولله الحمد والمنة .وقد روى البخارى فى صحيحه عن عمرو بن سلمة قال : لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ ، وكانت الأحياء تَتَلَوَّمُ بإسلامها فتح مكة ، يقولون : دعوه وقومه ، فإن ظهر عليهم فهو نبى . الحديث [٤] . وقد حرّرنا غزوة الفتح فى كتابنا : السيرة ، فمن أراد فليراجعه هناك ، ولله الحمد والمنة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا أبو إسحاق ، عن الأوزاعى ، حدثنى أبو عمار ، حدثنى جار لجابر بن عبد الله قال : قدمت من سفر فجاءنى جابر بن عبد الله ، فسلم علىّ [٥] ، فجعلت أحدّثُه عن افتراق الناس وما أحدثوا ، فجعل جابر يبكى ، ثم قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس دخلوا فى دين الله أفواجاً ، وسيخرجون منه أفواجاً » [٦] .

[آخر تفسير سورة « إذا جاء نصر الله والفتح » ولله الحمد والمنة] [٧]

(١) تفسير الطبرى (٣٠/٢١٦) .
(٢) سبق ذكر أحاديث كفارة المجلس وذكر طرقها فى آخر تفسير سورة الصافات .
(٣) المسند (١/٣٨٨) .
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٣٠٢) .
(٥) فى م : « يسلم على » .
(٦) المسند (٣/٣٤٣) .
(٧) زيادة من أ .

١٠٧ ـــ سورة النصر

(مدنية وهى ثلاث آيات)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ ١١٠ النصر

وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ ١١٠ النصر

﴿ سورة النصر مدنية وآيها ثلاث ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (إذا جاء نصر الله) أى إعانته تعالى وإظهاره إياك على عدوك (والفتح)
أى فتح مكة وقيل جنس نصر الله تعالى ومطلق الفتح فإن فتح مكة لما كان مفتاح الفتوح ومناطها
كما أن نفسها أم القرى وإمامها جعل مجيئه بمنزلة مجىء سائر الفتوح وعلق به أمره عليه السلام بالتسبيح
والحمد والتعبير عن حصول النصر والفتح بالمجىء للإيذان بأنهما متوجهان نحوه عليه السلام وأنهما
على جناح الوصول إليه عليه السلام عن قريب . روى أنها نزلت قبل الفتح وعليه الأكثر وقيل فى
أيام التشريق بمنى فى حجة الوداع فكلمة إذا حينئذ باعتبار أن بعض ما فى حيزها أعنى رؤية دخول
الناس الخ غير منقض بعد وكان فتح مكة لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان ومع النبى صلى الله
عليه وسلم عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وطوائف العرب وأقام بها خمس عشرة ليلة وحين
دخلها وقف على باب الكعبة ثم قال لا إله إلا الله وحده لاشريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم
الأحزاب وحده ثم قال ياأهل مكة ماترون أنى فاعل بكم قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم قال اذهبوا
فأنتم الطلقاء فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان الله تعالى أمكنه من رقابهم عنوة وكانوا
٢ له فيئاً ولذلك سمى أهل مكة الطلقاء ثم بايعوه على الإسلام ثم خرج إلى هوازن (ورأيت الناس) أى
* أبصرتهم أو علمتهم (يدخلون فى دين الله) أى ملة الإسلام التى لادين يضاف إليه تعالى غيرها والجملة
* على الأول حال من الناس وعلى الثانى مفعول ثان لرأيت وقوله تعالى (أفواجا) حال من فاعل يدخلون
أى يدخلون فيه جماعات كثيفة كأهل مكة والطائف واليمن وهوازن وسائر قبائل العرب وكانوا قبل
ذلك يدخلون فيه واحداً واحداً واثنين اثنين . روى أنه عليه السلام لما فتح مكة أقبلت العرب
بعضها على بعض فقالوا إذا ظفر بأهل الحرم فلن يقاومه أحد وقد كان الله تعالى أجارهم من أصحاب
الفيل ومن كل من أرادهم فكانوا يدخلون فى دين الإسلام أفواجا من غير قتال وقرىء فتح الله والنصر

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ١١٠ النصر

٣ وقرىء يدخلون على البناء للمفعول (فسبح بحمد ربك) فقل سبحان الله حامداً له أو فتعجب لتيسير الله تعالى مالم يخطر ببال أحد من أن يغلب أحد على أهل حرمه المحترم واحمده على جميل صنعه هذا على الرواية الأولى ظاهر وأما على الثانية فلعله عليه السلام أمر بأن يداوم على ذلك استعظاماً لنعمه لا بإحداث التعجب لما ذكر فإنه إنما يناسب حالة الفتح أو فاذكره مسبحاً حامداً زيادة فى عبادته والثناء عليه لزيادة إنعامه عليك أو فصل له حامداً على نعمه روى أنه لما فتح باب الكعبة صلى صلاة الضحى ثمان ركعات أو فنزهه عما يقوله الظلمة حامداً له على أن صدق وعده أو فاثن على الله تعالى بصفات الجلال حامداً له على صفات الإكرام (واستغفره) هضما لنفسك واستقصاراً لعملك واستعظاماً ☆ لحقوق الله تعالى واستدراكا لما فرط منك من ترك الأولى. عن عائشة رضى الله عنها إنه كان عليه الصلاة والسلام يكثر قبل موته أن يقول سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك وعنه عليه السلام إنى لأستغفر فى اليوم والليلة مائة مرة وروى أنه لما قرأها النبى صلى الله عليه وسلم على أصحابه استبشروا وبكى العباس فقال عليه السلام مايبكيك ياعم فقال نعيت إليك نفسك قال عليه السلام إنها لكما تقول فلم ير عليه السلام بعد ذلك ضاحكا مستبشراً وقيل إن ابن عباس هو الذى قال ذلك فقال عليه السلام لقد أوتى هذا الغلام علماً كثيراً ولعل ذلك للدلالة على تمام أمر الدعوة وتكامل أمر الدين كقوله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم وروى أنها لما نزلت خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن عبداً خيره الله تعالى بين الدنيا وبين لقائه فاختار لقاء الله تعالى فعلم أبو بكر رضى الله عنه فقال فديناك بأنفسنا وآبائنا وأولادنا وعنه عليه السلام أنه دعا فاطمة رضى الله عنها فقال يابنتاه إنه نعيت إلى نفسى فبكت فقال لاتبكى فإنك أول أهلى لحوقا بى وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن هذه السورة تسمى سورة التوديع وقيل هو أمر بالاستغفار لأمته (إنه كان تواباً) منذ خلق المكلفين أى ☆ مبالغاً فى قبول توبتهم فليكن كل تائب مستغفر متوقعاً للقبول. عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النصر أعطى من الأجر كمن شهد مع محمد يوم فتح مكة.



وتسمى سورة إذا جاء. وعن ابن مسعود أنها تسمى سورة التوديع لما فيها من الإيماء إلى وفاته عليه الصلاة والسلام وتوديعه الدنيا وما فيها. وجاء في عدة روايات عن ابن عباس وغيره أنه ﷺ قال حين نزلت: «نعيت إليّ نفسي» وفي رواية للبيهقي عنه أنه لما نزلت دعا عليه الصلاة والسلام فاطمة رضي الله تعالى عنها وقال: «إنه قد نعيت إليّ نفسي» فبكت ثم ضحكت، فقيل لها فقالت: أخبرني أنه نعيت إليه بنفسه فبكيت، ثم أخبرني بأنك أول أهلي لحاقاً بي فضحكت. وقد فهم ذلك منها عمر رضي الله تعالى عنه وكان يفعل عليه الصلاة والسلام بعدها فعل مودع. وهي مدنية على القول الأصح في تعريف المدني، فقد أخرج الترمذي في مسنده والبيهقي من حديث موسى بن عبيدة وعبد الله بن دينار وصدقة بن بشار عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قال: هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق بمنى وهو في حجة الوداع ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ [النصر: ١]حتى ختمها الخبر، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وغيرهما، لكن قال الحافظ ابن رجب بعد أن أخرجه عن الأولين إن إسناده ضعيف جداً، وموسى بن عبيدة قال أحمد لا تحل الرواية عنه وعليه إن صح يكون نزولها قريباً جداً من زمان وفاته ﷺ، فإن ما بين حجة الوداع وإجابته عليه الصلاة والسلام داع الحق ثلاثة أشهر ونيف. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة أنه قال: والله ما عاش ﷺ بعد نزول ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ قليلاً سنتين ثم توفي عليه الصلاة والسلام. وفي البحر إن نزولها عند منصرفه ﷺ من خيبر، وأنت تعلم أن غزوة خيبر كانت في سنة سبع أواخر المحرم فيكون ما في البين أكثر من سنتين ويدل على مدنيتها أيضاً ما أخرجه مسلم وابن أبي شيبة وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال: آخر سورة نزلت في القرآن جميعاً﴿إذا جاء نصر الله﴾ وآيها ثلاث بالاتفاق، وفيها إشارة إلى اضمحلال ملة الأصنام وظهور دين الله عز وجل على أتم وجه وهو وجه مناسبتها لما قبلها. ويحتمل غير ذلك وهي على ما أخرج الترمذي وغيره من حديث أنس ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ ربع القرآن ولم أظفر بوجه ذلك وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يتعلق به.

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ﴾ أي إعانته تعالى وإظهاره إياك على عدوك وهذا معنى النصر المعدى بعلى، وفسر به لأنه أوفق بقوله تعالى ﴿وَالْفَتْحُ﴾ وجوز أن يراد به المعدى بمن ومعناه الحفظ والفتح يتضمن النصر بالمعنى الأول فحينئذ يكون الكلام مشتملاً على إفادة النصرين والأول هو الظاهر. و ﴿إذا﴾ منصوب بسبح والفاء غير مانعة على ما عليه الجمهور في مثل ذلك وأبو حيان على أنها معمولة للفعل بعدها وليست مضافة إليه وسيأتي إن شاء الله تعالى قول آخر. والمراد بهذا النصر ما كان في أمر مكة من غلبته عليه الصلاة والسلام على قريش، وذكر النقاش عن ابن عباس أن النصر هو صلح الحديبية وكان في آخر سنة ست، وأما الفتح فقد أخرج جماعة عنه وعن عائشة أن المراد به فتح مكة وروي ذلك عن مجاهد وغيره وصححه الجمهور وكان في السنة الثامنة، وقال ابن شهاب: لثلاث عشرة بقيت من شهر رمضان على رأس ثمان سنين ونصف من الهجرة. وخرج عليه الصلاة والسلام على ما أخرجه أحمد بسند صحيح عن أبي سعيد لليلتين خلتا من شهر رمضان، وفي رواية أخرى عن أحمد لثمان عشرة، وفي أخرى لثنتي عشرة وعند مسلم لست عشرة. وقال الواقدي خرج ﷺ يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان بعد العصر، وضعفه القسطلاني وكان المسلمون في تلك الغزوة عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وطوائف من العرب. وفي الإكليل اثني عشر ألفاً وجمع بأن العشرة خرج بها عليه الصلاة والسلام من المدينة ثم تلاحق الألفان، والأولى أن يحمل النصر على ما كان مع الفتح المذكور فإن كانت السورة الكريمة نازلة قبل ذلك فالأمر ظاهر وتتضمن الإعلام بذلك قبل كونه وهو من أعلام النبوة، وإذا كانت نازلة بعده فقال الماتريدي في التأويلات: إن ﴿إذا﴾ بمعنى إذ التي للماضي، ومجيئها بهذا المعنى كثير في القرآن وعليه تكون متعلقة بمقدر ككمل الأمر أو أتم النعمة على العباد أو نحو ذلك لا بسبح لأن الكلام حينئذ نحو أضرب زيداً أمس. وقال بعض الأجلّة: هي لما يستقبل كما هو الأكثر في استعمالها، وحينئذ لم يكن بد من أن يجعل شيء من ذلك مستقبلاً مترقياً باعتبار أن فتح مكة كان أم الفتوح والدستور لما يكون من بعده فهو مترقب باعتبار ما يدل عليه، وإن كان متحققاً باعتباره في نفسه وجوز أن يكون الاستقبال باعتبار مجموع ما في حيّز ﴿إذا﴾ فمنه ما هو مستقبل وهو ما تضمنه قوله سبحانه ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً﴾ ولو باعتبار آخر داخل وهو مما لا بأس به إن لم يكن النزول بعد تمام الدخول. وقيل: المراد جنس نصر الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام والمؤمنين وجنس الفتح فيعم ما كان في أمر مكة زادها الله تعالى شرفاً وغيره وأمر الاستقبال عليه ظاهر، وأيّاً ما كان فالمراد بالمجيء الحصول وهو حقيقة فيه على ما يقتضيه ظاهر كلام الراغب. وقال القاضي: مجاز، والظاهر أن الخطاب في ﴿رأيت﴾ للنبيّ عليه الصلاة والسلام والرؤية بصرية أو علمية متعدية لمفعولين، و ﴿الناس﴾ العرب و ﴿دين الله﴾ ملة الإسلام التي لا دين له تعالى يضاف إليه غيرها، والأفواج جمع فوج وهو على ما قال الراغب: الجماعة المارة المسرعة ويراد به مطلق الجماعة. قال الحوفي: وقياس جمعه أفوج ولكن استثقلت الضمة على الواو فعدل إلى أفواج. وفي البحر قياس فعل صحيح العين أن يجمع على أفعل لا على أفعال ومعتل العين بالعكس فالقياس فيه أفعال كحوض وأحواض، وشذ فيه أفعل كثوب وأثوب. ونصب ﴿أفواجاً﴾ على الحال من ضمير ﴿يدخلون﴾ وأما جملة ﴿يدخلون﴾ فهي حال من الناس على الاحتمال الأول في الرؤية ومفعول ثان على الاحتمال الثاني فيها، وكونها حالاً أيضاً بجعل رأيت بمعنى عرفت كما قال الزمخشري تعقبه أبو حيان بقوله: لا نعلم أن رأيت جاءت بمعنى عرفت، فيحتاج في ذلك إلى استثبات والمراد بدخول الناس في دينه تعالى أفواجاً أي جماعات كثيرة إسلامهم من غير قتال وقد كان ذلك بين فتح مكة وموته عليه الصلاة والسلام، وكانوا قبل الفتح يدخلون فيه واحداً واحداً واثنين اثنين. أخرج البخاري عن عمرو بن سلمة قال: لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ، وكانت الأحياء تتلوم بإسلامها فتح مكة فيقولون دعوه وقومه فإن ظهر عليهم فهو نبي.

وعن الحسن قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة قالت الأعراب: أما إذا ظفر بأهل مكة وقد أجارهم الله تعالى من أصحاب الفيل فليس لكم به يدان، فدخلوا في دين الله تعالى أفواجاً. وقال أبو عمر بن عبد البر: لم يتوقف رسول الله ﷺ وفي العرب رجل كافر بل دخل الكل في الإسلام بعد حنين والطائف منهم من قدم، ومنهم من قد وافده وتأول ذلك ابن عطية فقال: المراد والله تعالى أعلم العرب عبدة الأوثان فإن نصارى بني تغلب ما أراهم أسلموا في حياة رسول الله ﷺ ولكن أعطوا الجزية. ونص بعضهم على أنهم لم يسلموا إذ ذاك فالمراد بالناس عبدة الأوثان من العرب كأهل مكة والطائف واليمن وهوازن ونحوهم. وقال عكرمة ومقاتل: المراد بالناس أهل اليمن وفد منهم سبعمائة رجل وأسلموا واحتج له بما أخرجه ابن جرير من طريق الحصين بن عيسى عن معمر عن الزهري عن أبي حازم عن ابن عباس قال: بينما رسول الله ﷺ في المدينة إذ قال: «الله أكبر الله أكبر جاء نصر الله والفتح وجاء أهل اليمن» قيل: يا رسول الله وما أهل اليمن؟ قال «قوم رقيقة قلوبهم لينة طاعتهم الإيمان والفقه يمان والحكمة يمانية» وأخرج أيضاً من طريق عبد الأعلى عن معمر عن عكرمة مرسلاً. وقوله عليه الصلاة والسلام «الايمان يمان» جاء في حديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ «أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوباً، الإيمان يمان والحكمة يمانية» فقيل: قال ﷺ ذلك لأن مكة يمانية ومنها بعث ﷺ وفشا الإيمان. وقيل أراد عليه الصلاة والسلام مدح الأنصار لأنهم يمانون وقد تبوءوا الدار والإيمان. وقول ابن عباس في الخبر في المدينة يعارض قول من قال إن ذلك إنما قاله ﷺ بتبوك وكان بينه وبين اليمن مكة والمدينة وهما دارا الإيمان ومظهراه ويحتمل تكرار القول، والظاهر أنه ثناء على أهل اليمن لإسراعهم إلى الإيمان وقبولهم له بلا سيف، ويشمل الأنصار من أهل اليمن وغيرهم، فكأن الإيمان كان في سنخ قلوبهم فقبلوه كما أنهى إليهم كمن يجد ضالته ومثله في الثناء عليهم قوله عليه الصلاة والسلام: «أجد نفس ربكم من قبل اليمن». وقال عصام الدين: يحتمل أن يكون الخطاب في ﴿**رأيت الناس**﴾ عاماً لكل مؤمن ثم قال: وما يختلج في القلب أن المناسب بقوله تعالى ﴿**يدخلون في دين الله أفواجا**﴾ أن يحمل قوله سبحانه ﴿**والفتح**﴾ على فتح باب الدين عليهم انتهى. وكلا الأمرين كما ترى. وقرأ ابن عباس كما أخرج أبو عبيدة وابن المنذر عنه «إذا جاء فتح الله والنصر» وقرأ ابن كثير في رواية ﴿**يُدْخَلُونَ**﴾ بالبناء للمفعول.

﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**﴾ أي فنزهه تعالى بكل ذكر يدل على التنزيه حامداً له جل وعلا زيادة في عبادته والثناء عليه سبحانه لزيادة إنعامه سبحانه عليك، فالتسبيح التنزيه لا التلفظ بكلمة سبحان الله، والباء للملابسة، والجار والمجرور في موضع الحال والحمد مضاف إلى المفعول. والمعنى على الجمع بين تسبيحه تعالى وهو تنزيهه سبحانه عما لا يليق به عز وجل من النقائص وتحميده وهو إثبات ما يليق به تعالى من المحامد له لعظم ما أنعم سبحانه به عليه عليه الصلاة والسلام. وقيل: أي نزهه تعالى عن العجز في تأخير ظهور الفتح وأحمده على التأخير، وصفه تعالى بأن توقيت الأمور من عنده ليس إلا لحكمة لا يعرفها إلاّ هو عز وجل وهو كما ترى، وأيّد ذلك بما في الصحيحين عن مسروق عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي» يتأول القرآن تعني هذا مع قوله تعالى ﴿**واسْتَغْفِرْهُ**﴾ أي اطلب منه أن يغفر لك وكذا بما في مسند الإمام أحمد وصحيح مسلم عن عائشة أيضاً قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قول: «سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه» وقال: «إن ربي أخبرني أن سأرى علامة في أمتي وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره» الخ. وروى ابن جرير من طريق حفص بن عاصم عن الشعبي عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجيء إلاّ قال: «سبحان الله وبحمده» قال: «إني أمرت بها» وقرأ السورة وهو غريب. وفي المسند عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾ كان

يكثر إذا قرأها وركع أن يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم» ثلاثاً. وجوز أن تكون الباء للاستعانة والحمد مضاف إلى الفاعل أي سبحانه بما حمد سبحانه به نفسه. قال ابن رجب: إذ ليس كل تسبيح بمحمود، فتسبيح المعتزلة يقتضي تعطيل كثير من الصفات وقد كان بشر المريسي يقول: سبحان ربي الأسفل تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. والظاهر الملابسة وجوز أن يكون التسبيح مجازاً عن التعجب بعلاقة السببية فإن من رأى أمراً عجيباً قال: سبحان الله، أي فتعجب لتيسير الله تعالى ما لم يخطر ببالك وبال أحد من أن يغلب أحد على أهل الحرم، وأحمده تعالى على صنعه وهذا التعجب تعجب متأمل شاكر يصح أن يؤمر به وليس الأمر بمعنى الخبر بأن هذه القصة من شأنها أن يتعجب منها كما زعم ابن المنير. والتعليل بأن الأمر في صيغة التعجب ليس أمراً بين السقوط. نعم هذا الوجه ليس بشيء والأخبار دالة على أن ذلك أمر له ﷺ بالاستعداد للتوجه إلى ربه تعالى والاستعداد للقائه بعدما أكمل دينه وأدى ما عليه من البلاغ. وأيضاً ما ذكرناه من الآثار آنفاً لا يساعد عليه. وقيل: المراد بالتسبيح الصلاة لاشتمالها عليه ونقله ابن الجوزي عن ابن عباس أي فصل له تعالى حامداً على نعمه. وقد روى ﷺ لما دخل مكة صلى في بيت أم هانىء ثمان ركعات، وزعم بعضهم أنه صلاها داخل الكعبة وليس بالصحيح. وأيًّا ما كان فهي صلاة الفتح وهي سُنَّة وقد صلاها سعد يوم فتح المدائن وقيل: الضحى، وقيل أربع منها للفتح وأربع للضحى وعلى كل ليس فيها دليل على أن المراد بالتسبيح الصلاة والأخبار أيضاً تساعد على خلافه واستغفاره ﷺ قيل لأنه كان دائماً في الترقي فإذا ترقى إلى مرتبة استغفر لما قبلها. وقيل مما هو في نظره الشريف خلاف الأولى بمنصبه المنيف. وقيل: عما كان من سهو ولو قيل النبوة وقيل لتعليم أمته ﷺ، وقيل هو استغفار لأمته عليه الصلاة والسلام أي واستغفره لأمتك وجوز بعضهم كون الخطاب في ﴿رأيت﴾ عاماً وقال: ها هنا يجوز حينئذ أن يكون الأمر بالاستغفار لمن سواه عليه الصلاة والسلام وإدخاله ﷺ في الأمر تغليب وهذا خلاف الظاهر جداً، وأنت تعلم أن كل أحد مقصر عن القيام بحقوق الله تعالى كما ينبغي وأدائها على الوجه اللائق بجلاله جل جلاله وعظمته سبحانه وإنما يؤديها على قدر ما يعرف، والعارف يعرف أن قدر الله عز وجل أعلى وأجلّ من ذلك فهو يستحي من عمله ويرى أنه مقصر، وكلما كان الشخص بالله تعالى أعرف كان له سبحانه أخوف وبرؤية تقصيره أبصر وقد كان كهمس يصلي كل يوم ألف ركعة، فإذا صلى أخذ بلحيته ثم يقول لنفسه: قومي يا مأوى كل سوء فوالله ما رضيتك لله عز وجل طرفة عين. وعن مالك بن دينار: لقد هممت أن أوصي إذا متّ أن ينطلق بي كما ينطلق بالعبد الآبق إلى سيده فإذا سألني قلت: يا رب إني لم أرض لك نفسي طرفة عين فيمكن أن يكون استغفاره عليه الصلاة والسلام لما يعرف من عظيم جلال الله تعالى وعظمته سبحانه فيرى أن عبادته وإن كانت أجل من عبادة جميع العابدين دون ما يليق بذلك الجلال وتلك العظمة التي هي وراء ما يخطر بالبال فيستحيي ويهرع إلى الاستغفار. وقد صح أنه عليه الصلاة والسلام كان يستغفر الله في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة، وللإشارة إلى قصور العابد عن الإتيان بما يليق بجلال المعبود وأن بذل المجهود شرع الاستغفار بعد كثير من الطاعات فذكروا أنه يشرع لمصلي المكتوبة أن يستغفر عقبها ثلاثاً وللمتهجد في الأسحار أن يستغفر ما شاء الله تعالى، وللحاج أن يستغفر بعد الحج فقد قال تعالى ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ [البقرة: ١٩٩] وروي أنه يشرع لختم الوضوء، وقالوا: يشرع لختم كل مجلس وقد كان ﷺ يقول إذا قام من المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك» ففي الأمر بالاستغفار رمز من هذا الوجه على ما قيل إلى ما فهم من النعي، والمشهور أن ذلك للدلالة على مشارفة تمام أمر الدعوة وتكامل أمر الدين والكلام وإن كان مشتملاً على التعليق وتقديم التسبيح ثم الحمد على الاستغفار قيل على طريقة النزول من الخالق إلى الخلق كما قيل: ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله تعالى قبله

لأن جميع الأشياء مرايا لتجليه جل جلاله وذلك لأن في التسبيح والحمد توجهاً بالذات لجلال الخالق وكماله، وفي الاستغفار توجهاً بالذات لحال العبد وتقصيراته ويجوز أن يكون تأخير الاستغفار عنهما لما أشرنا إليه في مشروعية تعقيب العبادة بالاستغفار وقيل في تقديمها عليه تعليم أدب الدعاء وهو أن لا يسأل فجأة من غير تقديم الثناء على المسؤول منه.

﴿إِنَّه كَانَ تَوَّابا﴾ أي منذ خلق المكلفين أي مبالغاً في قبول توبتهم فليكن المستغفر التائب متوقعاً للقبول فالجملة في موضع التعليل لما قبلها، واختيار ﴿توابا﴾ على غفاراً مع أنه الذي يستدعيه استغفره ظاهراً للتنبيه كما قال بعض الأجلّة على أن الاستغفار إنما ينفع إذا كان مع التوبة. وذكر ابن رجب أن الاستغفار المجرد هو التوبة مع طلب المغفرة بالدعاء والمقرون بالتوبة فأستغفر الله تعالى وأتوب إليه سبحانه هو طلب المغفرة بالدعاء فقط. وقال أيضاً: إن المجرد طلب وقاية شر الذنب الماضي بالدعاء والندم عليه ووقاية شر الذنب المتوقع بالعزم على الإقلاع عنه وهذا الذي يمنع الإصرار كما جاء: «ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة، ولا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار». والمقرون بالتوبة مختص بالنوع الأول فإن لم يصحبه الندم على الذنب الماضي فهو دعاء محض، وإن صحبه ندم فهو توبة انتهى. والظاهر أن ذلك الدعاء المحض غير مقبول وفيه من سوء الأدب مع الله تعالى ما فيه. وقال بعض الأفاضل إن في الآية احتباكاً والأصل واستغفره إنه كان غفاراً وتب إليه إنه كان تواباً وأيّد بما قدمناه من حديث الإمام أحمد ومسلم عن عائشة رضي الله تعالى عنها وحمل الزمان الماضي على زمان خلق المكلفين هو ما ارتضاه غير واحد. وقال الماتريدي في التأويلات: أي لم يزل تواباً لا أنه سبحانه تواب بأمر اكتسبه وأحدثه على ما يقوله المعتزلة من أنه سبحانه صار تواباً إذ أنشأ الخلق فتابوا فقبل توبتهم، فأما قبل ذلك فلم يكن تواباً. وردّ عليه بأن قبول التوبة من الصفات الإضافية ولا نزاع في حدوثها. واختار بعضهم ما ذهب إليه الماتريدي على أن المراد أنه تعالى لم يزل بحيث يقبل التوبة ومآله قدم منشأ قبولها من الصفات اللائقة به جل شأنه وفي ذلك مما يقوي الرجاء به عز وجل ما فيه. وصح «لو لم تذنبوا لذهب الله تعالى بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم. وفي الاستغفار خير الدنيا والآخرة» أخرج الإمام أحمد من حديث عطية عن أبي سعيد مرفوعاً: «من قال حين يأوي إلى فراشه أستغفر الله الذي لا إله إلاّ هو الحي القيوم وأتوب إليه غفر له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر، وإن كانت مثل رمل عالج، وإن كانت عدد ورق الشجر». وأخرج أيضاً من حديث ابن عباس: «من أكثر من الاستغفار جعل الله تعالى له من كل هم فرجاً». وأنا أقول سبحان الله وبحمده أستغفر الله تعالى وأتوب إليه وأسأله أن يجعل لي من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً بحرمة كتابه وسيد أحبابه ﷺ.